معاذ الحمري

ما بعد الغرق

رواية

عالم الكتب للنشر والتوزيع

تنويه

هذه الرواية مقتبسة عن أحداث حقيقية حدثت مع أشخاص أعرفهم شخصيًا والله على ما أُقول شهيد، هذه الرواية ستكشف لكم الجانب المظلم من الهجرة.

***

إهداء

إلى أصدقائي الذين هاجروا، وخاضوا تجارب بعضها مخيفة وبعضها ممتعة، أهدي لهم هذه الرواية، وأقول لهم: أنتم السابقون ونحن اللاحقون.

***

ما قبل البداية

- اليوم يا سادتي المُشاهدين سنقدم لكم عرض الفأر في الدلو.

فور أن أنهى ذلك الشخص، والذي يرتدي قناع ميكي ماوس، جملته تقدم نحو المسكين العاري والمقيد على الطاولة أمامه، أحضر المُقنع ثلاثة فئران ورماهم داخل الدلو ثم وضعه على معدة الفتى المُقيد، أشعل النار في بعض الجمرات ووضعها فوق الدلو ثم تكلم:

- شاهدوا الآن السحر الحقيقي.

دقائق مرت ولا شيء يحدث حتى بدأ الرجُل المقيد بالصراخ، يصيح بشدة متألمًا، دقيقة وراء دقيقة يزداد الألم، الدماء تتناثر من فمه ثم حدث غير المتوقع، فقد خرج أحد الفئران من فمه.

تقدم المُقنع ليزيل الدلو، فتبين أن الفئران حفرت معدة الرجل هربًا، فرت الفئران من السخونة التي أحدثتها الجمرات الموضوعة فوق الدلو.

أنهى المُقنع العرض بجملة:

- هذه التقنية يا سادة كانت تستخدم قديمًا للقتل، نلتقي في حلقة قادمة مع ضحية جديدة وتقنية قديمة أخرى.

أغلق طارق ذو الـ ٢٧ عامًا المُتصفح وخرج من موقع الغرفة الحمراء، بعد مشاهدته للعرض المرعب الذي اعتاد مشاهدته كُل أسبوع، هكذا يقضي ليله بعد العودة من العمل على الانترنت

المُظلمالمواقع المُريبة بحكم أنه يعشق الاختراق، وهكذه فهو دومًا يقضي ليله على تلك الشبكة المرعبة ليفهم تفاصيلها.

العرض الذي شاهده يُعرض على موقع الغرفة الحمراء، وكلمة الغرفة الحمراء ترمز إلى مجموعة مواقع بعضها حقيقي وبعضها مزيف، تعرض عمليات قتل مباشر بعضها مجاني وبعضها مدفوع الأجر.

يأتي النهار لينطلق طارقإلى عمله حيث يقضي به معظم يومه.

- هيا يا طارق لنُغلق المكتبة.

- لا يزال الوقت مبكرًا يامُصعب.

- تبقت نصف ساعة على أذان العشاء.

- إذًا فلننتظر النصف ساعة ثم نُغلق، عملنا سينتهي بعد أذان العشاء.

- لا بأس إن أغلقنا قبل الوقت بنصف ساعة... ليست جريمة.

- أستاذ ياسريثق بنا، ويجب أن لا نخذل ثقته، سنغلق في الوقت الذي حدده لنا !

- أنت أمين أكثر من اللازم.

- أنت هاجرت من السودان إلى ليبيا لتعمل أم لتتكاسل؟ لو كنتُ مكانك وهاجرتُ من بلادي لعملتُ ٢٤ ساعة.

- لماذا تعطي الأمر أكبر من حجمه يا طارق؟!، لا تزال فقط نصف

ساعة.

- إن أردت الذهاب اذهب وسأبقى أنا.

- نعم أذهب ثم تشي بي؟!

بضحكة رد طارق:

- أنت أحمق وتفكيرك سيء جدًا، لا لن أشي بك، اذهب

غادر مُصعبفرحًا ليبقى طارقلوحده بالمكتبة الكبيرة ينتظر الزبائن لشراء الكتب في آخر نصف ساعة، طارقصاحب البنية المناسبة للاعب كرة قدم بعينيه البنيتين اللتين ترصدان كُل ما حولها، فتى ترافقه الابتسامة دومًا وتزين وجهه اللحية.

دخلت فتاة سمراء البشرة، أطلقت السلام ليشد صوتها طارق، والذي كان منغمسًا بترتيب الكتب وفرزها، التفت إليها ليجذبه شكلها، لباسها، قوامها فيسرح وينسى أن يرد، يتوقف الزمن في نظرة ليُركز العقل في الفاتنة أمامه.

نطقت الفتاة:

- المعذرة سيدي.

هزة داخلية تُعيد لطارق تركيزه ليقول:

- آسف سيدتي، أهلا بك في مكتبتنا المتواضعة، كيف يمكننا أن نخدمك؟!

- هل لديك رواية أولاد حارتنا؟

- لـ نجيب محفوظ بالطبع.

- جيد أنت تعرف اسم الكاتب.

- بالطبع، ماذا توقعتِ؟

- معظم شباب هذا الوقت لا يقرؤون لهذا تعجبتِ.

- يا فتاة ألا ترين؟ أنا موظف مكتبة، أقضي مُعظم وقتي بين الكتب، فالأمر منطقي أن أعرف الكُتب وخصوصًا الأديب نجيب محفوظرحمه الله.

- ذهبتُ لمكتبات أخرى والموظفون فيها لا يعرفون ما يكتبنجيب محفوظولا غيره، يتعاملون مع الكُتب على أنها فقط سلعة، يحضرون الأكثر مبيعًا ويملأون مكتباتهم بالكُتب الركيكة.

- أنا لستُ كذلك.

- إذًا سأختبرك، ما رأيك؟

- جاهز.

تبادل الاثنان الحديث ليأخذهما الوقت إلى ساعة بعد موعد العمل، تكرر اللقاء يومًا بعد يوم في المساء تحديدًا، بعد أن يعود مُصعب يجلسُ طارق في انتظار زبونته ريان ليتبادلا الحديث لوحدهما عن الكتب، طارق يتمنى أن لا ينتهي الحديث ويناقشها في حديث مطول محاولًا إبقاءها إلى جانبه لأكثر وقت ممُكن.

ذات يوم قرر مُصعب على غير عادة عدم العودة، قال طارق.

- يمكنك الذهاب يا مُصعب، وسأهتم أنا بتنظيف وإغلاق المكتبة.

- لا، اليوم ليست لديَّ رغبة في العودة، سأبقى معك حتى نُغلق المكتبة.

حاول طارق بكل الطرق أن يجعل مُصعب يذهب دون فائدة، أتته رسالة على هاتفه من ريان تخبره أنها في الطريق للمكتبة، ابتسم فور قراءته للرسالة، تحمس ليس للنقاش في الكُتب بل ليوم آخر يقضيه مع ريان، استفسر مُصعب:

- من جعلك تبتسم هكذا يا ولد؟!

سؤال مُصعب جعل طارق يجيب، لكن في باطن عقله دون أن يُسمع صديقه:

- هي من جعلتني أبتسم، تلك السمراء التي تثقب خديها غمازتان يزداد حجمهما مع ابتسامتها، القصيرة المشاكسة بشعرها المنفوش، صاحبة الملامح الصغيرة، رقيقة الصوت كثيرة الحديث.

ضرب مُصعب طارق على رأسه ليعيده إلى عقله:

- أجب.

- لا شأن لك، ألن تذهب؟

- لا، في الواقع أريد أن أعرف سبب بقائك في المكتبة كل هذا الوقت، ورغبتك الدائمة في أن أعود وأتركك تعمل لوحدك، لا أظن أن هذا نابع من حبك لي!

يُفتح باب المكتبة لتدخل ريان الفاتنة، قفز مُصعب من مكانه وعيناه تبرقان إعجابًا، تعجبت ريان من وجوده، فهم مُصعب سبب بقاء طارق وحده في العمل، وأطلق نظرات ثاقبة صوب زميله، و قال طارق:

- أهلا ريان هذا زميلي في العمل مُصعب.

بابتسامة خفيفة رحبت ريان:

- أهلا.

همس مُصعب لـ طارق:

- لهذا كُنت تطردني يا ذئب؟!

حاول مُصعب التودد لكن دون فائدة، لم تستطع البقاء، وكمحاولة منها ألا تثير أية شبهات اشترت كتابًا وأخذت طريقها لتُغادر ريان وترسل رسالة لـ طارق مفادها:

- يجب أن نلتقي في مكان آخر، صديقك أعجب بي ولا أظن أن هذا أمر جيد.

ضحك طارق، قال مُصعب:

- يا رجل، يجب أن تعرفني عليها.

- طبعًا لا.

- لماذا؟ أرجوك يا رجل، نحن أقارب.

- أنت وهي أقارب؟ كيف هي ليبية وأنت سوداني!

- هي سمراء وأنا أسمر.

- أنت أحمق وأغلق هذا الموضوع لن أعرفك عليها.

التقى الاثنان في اليوم المُقبل بمقهى، قال طارق:

- لنبتعد عن عالم الكُتب قليلا، طبيبة التخدير صاحبة الأربعة والعشرين عامًا ريان البرناوي عرفيني بنفسك.

- ماذا تريد أن تعرف سيد طارق؟

- سأكون صريحًا، لا يزال الوضع لدينا في مدينة بنغازي غير مستقر، فكيف يتركك أهلك تخرجين بسيارتك هكذا ليلًا؟

لزمت ريان الصمت فتعجب طارق:

- هل أزعجكِ سؤالي؟ آسف حقًا انسي أنني سألتُ.

نزلت دموعها وهزت بكلامها طارق:

- نهاية طفولتي السعيدة كمدللة عائلتي، في سن العاشرة وكعادتي أنتظر عائلتي في المدرسة بعد انتهاء الدوام ليأخذوني، أبي يقل أمي من عملها ثم يمران لأخذي، ومباشرة نذهب لأكثر وجهة أحبها البقالة لأملئ حقيبتي بالسكاكر والكعك، تغير روتيني ذلك اليوم، اليوم الذي لم أذهب فيه إلى البقالة مع أبي وأمي، أنتظرتهما في المدرسة، تأخرا ولم أقلق؛ لأن تأخرهما يحدث في بعض الأحيان، جلستُ في ساحة المدرسة مع رفيقاتي لتأتي عوائلهن واحدة تلو الأخرى، فرغت الساحة من

الطُلاب وأصبحت وحدي جالسة، حارس المدرسة هو فقط المتبقي، الخامسة عصرًا اندفع من الباب مجموعة رجال غُرباء، تبادلوا الحديث مع الحارس وبعدها تقدموا نحوي بخطوات ثابتة ليتوددوا لي بكلام لطيف جعلني أبتسم، ولأنني طفلة لم أعرف أن ذلك الكلام كان الأكثر ألمًا في حياتي، أرادوني أن أذهب معهم، لكنني رفضت، فلعبوا على الوتر الحساس وقالوا: «سنأخذك إلى والديك»، تلك اللحظة تناسيتُ كل شيء، أردت فقط حضن أمي وحنان أبي فوافقت، نُقلت إلى مركز رعاية حيث استقريتُ هناك، في البداية لم يصارحوني بالأمر وأبلغوني بكذبة أبلغوا بها العديد من الأطفال في ذلك الصرح المخيف: «أهلك سافروا في رحلة عمل ولن يعودوا إلا بعد وقت طويل»، بعد عدة أشهر علمتُ أنهما انتقلا إلى الرفيق الأعلى، لم يسأل عني أحد من العائلة؛ لأنه في الواقع ليست لدي عائلة لا أعمام ولا خلان، لدينا أقارب يعيشون في الجنوب الليبي ولا يعلمون شيئًا عني، قضيتُ طفولتي في مركز الرعاية، حتى وصلتُ إلى السنة الحادية والعشرين لأستقل بحياتي، وأتعلم ماذا فعلتُ حين أعلنتُ استقلالي؟ ملأت ثلاجة الشقة بالسكاكر وكالكعك، الكثير والكثير من السكاكر، هذه قصتي.

ابتسم طارق:

- أقشعر جسدي من قصتك، أنتِ يا ريان جعلتني أضحك على نفسي وكيف أسمي التفاهات التي تحصل معي مشاكل؟!

ضحكت ريان:

- هل يمكنني يا طارق أن أعرف هذه التي تسميها تفاهات؟

- في الثانية عشرة من عمري تلقيتُ أكبر صدمة في حياتي حين امتلأ منزلنا بأفراد العائلة وأنا في تعجب كبير، لم يتشجع أحد على رمي ذلك السهم علي حتى تشجع جدي وأبلغني أن أمي خسرت أمام السرطان، بعد وفاة والدتي بعام تزوج أبي بامرأة تصغره بسنوات، أنجبت ثلاث فتيات، ولم ترزق بولد، فكان هذا دافعًا كافيًا لكرهي، زاد الأمر سوءًا أن أبي مطيع لها، هل رصدته بسحر أم بلسان معسول لا أعلم، ما أعلمه أنه مطيع، جعلته يسجل الشقة باسمها، وأصبحت هوايتها تهديدي بالطرد من المنزل في حالة العصيان، وأصبحتُ كالعبد عندها.

أحست ريان بالحزن الساري في جسد طارق، قالت:

- إلى الآن؟!

- نعم إلى الآن.

- ووالدك؟ ألم تحدثه؟

- والدي رجل مسن ولا يرفض لها طلبًا، الحديث معه كالضرب في الماء.

- إذًا أنا وأنت نحارب في هذه الحياة وحدنا.

- نعم.

- فلنغير الجملة.

- أية جملة؟

- نحارب في هذه الحياة وحدنا، فلنغيرها إلى معًا في هذه الدنيا نُحارب.

تلبك طارق وعلت وجهه ملامح الخجل، أحست ريان بالإحراج :

- انس ما قُلت، أنا بلهاء وأقول أشياء غبية في بعض الأحيان.

- على الإطلاق، ما قُلته ليس غبيًا، الفكرة أنني أنا الذي لاأستطيع ربطك أو ربط أي فتاة بشخص مثلي، شخص بمشاكلي، شخص مصيره بيدي عجوز شمطاء.

- لا، مصيرك ليس بيديها.

- بل هو كذلك، أعيش تحت سقف منزلها ورغم كل لؤمها وكرهها لي لكنها هي من ربتني، وهذا أمر لا أستطيع نكرانه لها.

- أن تهتم بك حتى تكبر هذا واجبها وفرض عليها، أما المنزل فهو في الأساس لكم جميعًا، لكنها استغلت والدك، يا طارق أنت تخافها، صحيح؟

- زرعت داخلي الخوف منها.

- سنزيله لا تقلق، وبالنسبة للسكن شقتي مفتوحة أبوابها لك سيد طارق.

أكملت ضاحكة:

- في الواقع مفتوح بابها.

عاد كلُ منهما إلى منزله، يوم يأتي وآخر يذهب، روتين يومي لـ

طارق بين المعاملة السيئة من زوجة أبيه وبين العمل الشاق وبين أجمل شيء في يومه لقائه ريان.

نهاية الشهر، أو كما يسميه البعض يوم الراتب، طارق ومُصعب في المكتبة ينتظران صاحب المكتبة ياسر ليسلمهما الراتب، قال مُصعب:

- أتعرف شيئًا يا طارق أنت صديق جيد، عملنا معًا لمدة سنة تقريبًا الآن، من ٢٠١٦ إلى هذه اللحظة في ٢٠١٧ أنت حقًا زميل جيد.

بضحكة رد طارق:

- لماذا تقول هذا الكلام؟

- لآن هذا آخر لقاء لنا يا صديقي.

- آخر لقاء؟ والسبب؟

- أتظنني حقًا أتيتُ إلى ليبيا لأكوِّن مستقبلي هنا؟ ليبيا فقط بوابتي إلى أوروبا، لدي عمي هاجر من ليبيا إلى إيطاليا، وهو الذي أبلغني بالأمر، وأوصلني بالشخص المسؤول عن عمليات التهريب، طلب مني خمسة آلاف دينار ليبي ليهربني.

- لهذا كنت تعمل بالمكتبة؟

- نعم مع راتب هذا الشهر أكون قد جمعت المبلغ كاملًا.

- أتهاجر من هنا من بنغازي؟

- طبعًا لا، من مدينة صبراتة.

- صبراتة بعيدة يا رجل، نحن في شرق ليبيا وهي في غربها.

- أعلم، لذلك حجزتُ تذكرة طيران إلى غرب ليبيا تحديدًا العاصمة طرابلس ومنها سأستقل حافلة إلى صبراتة.

- يبدو أنك نسقت كل شيء.

- نعم، والمُهرب ينتظرني.

- أنت ترمي بنفسك إلى التهلكة يا صديقي.

- الحياة مغامرة وأنا لستُ شجرة لأثبت في مكان واحد، أن أموت غريقًا محاولًا تحقيق حُلمي خير من أن أموت من رائحة الغبار التي تملأ هذه الكتب.

- أحمق، حسنًا يا رجل أنا لا أعرف ما أقول في مثل هذه الأحداث لكن بالتوفيق، أسأل الله أن يسهل لك الصعاب ويوفقك في رحلتك.

أتى المالك ياسر ليسلم الرواتب للموظفين، أبلغ مُصعب ياسرًا بأنه لا يريد الاستمرار بالعمل.

يوم يأتي وآخر يُغادر، روتين يومي لطارق لا جديد، بعد شهر تواصل مُصعب معه ليبلغه عن حياته وأنه استقر في إيطاليا، يحدثه عن جمال الحياة والتسهيلات التي تلقاها، إغراءات جعلت طارق يتلهف إلى جنة أوروبا، فلم يتوقف عن البحث ومشاهدة البرامج المتعلقة بالهجرة ليزداد تشوقه لخوض مغامرة

من هذا النوع.

قال وهو بالمقهى مع ريان عن الهجرة:

- أتعلمين لو واتتني الفرصة سأهاجر.

- أنت مجنون، الهجرة ليست كما تتصور، ستضطر لشق البحر والوقوع في احتمال الغرق، إن نجوت فستوضع في مخيمات وتعامل أسوأ معاملة، الهجرة تعني أنك ستتحمل العواقب مهما كانت.

- على الأقل أكون أطفأت نار الحماس داخيل، حتى لا أندم يوم لا ينفع فيه ندم.

- تعال معي وكأنك ستهاجر غدًا.

- مستعد أن أذهب الآن إن سنحت الفرصة.

- أطرد هذه الفكرة من رأسك.

خرج الاثنان للعودة إلى منازلهما، فور دخول طارق للمنزل قابلته زوجة أبيه أمل، ألقى التحية فردت:

- مررتُ منذ ثلاثة أيام وحتى اليوم على الساعة الثامنة مساءً بالمكتبة فوجدتها مغلقة، ألم تخبرني أن مديرك قام بزيادة وقت عملك إلى العاشرة؟

ارتبك طارق وتوتر:

- آه، كنتُ مع أصدقائي فقط.

- تقصد صديقتك؟!

- صديقتي؟

- اليوم بعد خروجك من المكتبة كُنت ألاحقك حتى وصلت إلى مقـهى بريـك، ورأيـت الفتـاة الـسمراء التـي دخلـت رفيقتـها إلـى المقهى.

- حسنًا سأكون صريحًا، تعرفتُ على صديقة ألتقي بها كل يوم في المقهى.

- أنا سأكون معك صريحة الآن، أنت تعيش في منزلي، السيارة أنا اشتريتها لك، العمل أنا من وفرته لك، لم أجعلك في هذا النعيم لتكذب وتلعب من ورائي، أنسيت اتفاقنا؟

- أي اتفاق؟

- زواجك من ابنة أختي.

- لكني أخبرتك أنني لم أرتح لها.

- ليس بمزاجك، ستتزوجها وستعيش معها في سعادة، لقد وعدتُ أختي ولم يُخلق من يكسر كلمتي بعد.

- لن أوافق.

- النعـاس أصـابني، سـأذهب للنـوم الآن، انـس أمـر صـديقتك، سأراقبك هذه الأيام وإن وجدتها معك فسأسحب منك السيارة وأطرك من البيت والعمل، ستصبح كلب شوارع، وأيضًا سأتصل بأختي لنتفق على زواجك بابنتها على ما يبدو، يجب أن أسرع.

- ولكن...

دخلت أمل غرفتها دون أن ترد على طارق الذي جلس والحزن يعتلي ملامحه، ينظر من نافذة غرفته متسائلًا: هل فعلًا لن يرى ريان مجددًا، ركز طارق نظره نحو السماء، فلم يرى النجوم ولا القمر، فزع؛ فالسماء شديدة السواد.

- الظلام يعود برحيلك يا ريان.

صباح اليوم المُقبل انطلق نحو المكتبة، يمر الوقت وكل تفكيره في حديث زوجة أبيه القاسي، أتى المساء ليرن هاتفه كالعادة المتصلة ريان، نبضات قلبه تسارعت، أمسك الهاتف مترددًا هل يرد أم لا، في النهاية أجاب:

- أهلا ريان.

- الساعة الآن الثامنة والنصف، نلتقي بعد نصف ساعة؟

أراد قول لا، فتح فمه ليخرجها لكن لم يجرؤ على قولها فنطق:

- نعم بال بالطبع.

- جيد، سلام.

بعد مرور عشر دقائق أغلق المكتبة وخرج ليذهب إلى المقهى، يدعو طول الوقت أن يمر اليوم على خير.

التقى بصديقته أمام باب المقهى ليدخلا معًا، جلسا، وكان التوتر واضحًا جليًا تلك الليلة، بعد حديث قصير يملؤه الارتباك من

طرف طارق، حاولت ريان الفهم:

- ماذا هناك؟

- ماذا تقصدين؟

- لا أعلم. قال بصعوبة وعيناه تحركهما يمينًا ويسارًا طوال الوقت وكأنك تنتظر أحدًا.

استوقف كلام ريان أمل:

- نعم هو ينتظرني أنا.

بعد أن أنهت جملتها التي قالتها والابتسامة الخبيثة تعتلي وجهها جلست معهما على الطاولة، سألت ريان:

- من أنتِ؟

- أنا يا عزيزتي المسؤولة عن هذا الفتى رفقتك.

- أنتِ زوجة أبيه؟

- بالضبط.

- طارق ليس طفلًا حتى يكون أحد مسؤولًا عنه.

- ما دام لا سكن لديه ولا عمل ولا سيارة فهو طفل ضائع يحتاج لمن يهتم به، أنا هنا لستُ للحديث معك، أريد أن أقول لطارق أنني اتصلتُ بأختي واتفقنا، نهاية هذا الأسبوع سأخطب لك ابنتها.

الصدمة اعتلت وجه ريان، بينما التوتر لم يفارق طارق، اللهجة العصبية واضحة في حديث ريان

- كيف لك أن تتحكمي على رجل بالغ بهذه الطريقة المهينة؟!

- أنا في مقام أمه، وقمتُ بتربيته وتوفير كل ما يلزمه في حياته، لي الحق الكامل في التحكم به وبحياته.

- أنتِ مخطئة، طارق هو المقرر الوحيد في حياته.

بضحكة مستفزة ردت:

- أنتِ تقولين هذا الكلام لأنك تتوقعين أنه سيتزوجك، ابني لن يتزوج فتاة سوداء البشرة، اذهبي لمن هم في نفس لون بشرتك؛ فنحن في عائلتنا لا نُزوج أبناءنا أو بناتنا لمن هم أقل منا.

وقفت ريان غاضبة.

- أي مستقنع قذر خرجتِ منه؟

أرادت أن تكمل ريان توبيخها لكن كان لدموعها رأي آخر لتتناثر على الطاولة، حينها خرج طارق عن صمته وكسر حاجز الخوف لأول مرة، نظر إلى زوجة أبيه وشرارة الغضب تتطاير من عينيه:

- سجل التاريخ كُل عنصري في أسوأ صفحاته، ارتاح سُمر البشرة من أن يكون لهم نسب مع عائلتكم، فأنا لا أريد لأي شخص أن يقع في نفس مصيبة أبي، وأخيرًا أنا لستُ فردًا من عائلتك.

خرجت ريان بخطوات مسرعة، وقف طارق للحاق بها فأمسكته أمل من يده قائلة:

- توقف عن هذا الجنون، يبدو أنها قامت بسحرك.

دفعها متحدثًا:

- لا تلمسيني مرة ثانية.

خرج والمخبولة أمل تصيح:

- لا تعُد للمنزل؛ فأنت من الآن مطرود منه.

فتحت ريان باب سيارتها لتصعد وجسدها لم يتوقف عن الارتعاش، لم تستطع إغلاق باب سيارتها؛ فطارق أمسكه، فقال:

- توقفي عن البُكاء، لا تلتفتي إلى ما قالته تلك الساقطة.

- كلامها كان قاسيًا، لا يستطيع أحد تحمله.

- لا تهتمي بها.

- آسفة يا طارق .

- على ماذا؟

- من الآن وصاعدًا لن يكون هناك أي حديث بيننا.

- أنتِ تمزحين.

- لا لا أمزح، هذه المرأة لا تنوي الخير لنا، ولا أظن أنك قادر على إيقافها، وأنا ليس لديَّ أحد ليساعدني إن حصلت مشكلة.

- ماذا تقولين؟ لقد تشاجرت معها للتو.

- صدقني يا طارق لن ينجح الأمر مادامت هذه السيدة في حياتنا.

- سنجدُ حلًا معًا.

- يُقال إن علمت أن القطار ذاهب في الطريق الخطأ انزل في أول محطة، والآن أنا نزلتُ قبل أن يأخذني القطار بعيدًا يا طارق.

تصلب طارق في مكانه، بينما أغلقت ريان باب سيارتها وغادرت دون وداع، رفع رأسه نحو السماء فلا نجوم ولا قمر، ظلام دامس، قال:

- إذًا عدت.

يدور طارق بالسيارة وهو محتار ماذا يفعل، في النهاية لم يجد إلا خيار العودة للمنزل، رجع لتقابله زوجة أبيه أمام الباب ووالده واقف إلى جانبها مطأطئا رأسه، قالت:

- لن تدخل حتى تعتذر وتخبرني أنك نسيت صديقتك.

طارق في موقف محرج جدًا يفكر بينه وبين نفسه:

- احتمال كبير أن ريان لن تكون معي سواء بقيت مع هذه العجوز الشمطاء أم تركتها، فهل أقبل بالذُل مجددًا وأعتذر أم أرفض؟!

أخذ نفسًا عميق وأكمل:

- نعم سأرفض ليس من أجل ريان بل من أجلي، حياتي ستتغير وسأكافح لجعلها أفضل.

نظر صوبها قائلًا:

- إذًا هي النهاية، أنا لن أعيش معك مجددًا.

- جيد، غدًا سأتصل بأستاذ ياسر وأبلغه أن يفصلك عن العمل، ادخل خذ كل ما يخصك وأعطني مفاتيح السيارة.

قاطع والد طارق الحديث:

- يا امرأة حرام عليك ما تفعلينه بالفتى.

- لا دخل لك يا عُمر، أي شخص لا يطيعني في منزلي يطرد منه، أنت ادخل واجلس فوضعك الصحي لا يسمح لك بالوقوف كثيرًا.

- ولكن هذا ابني.

- ابنك أنا من ربيته وعلمته ووفرت له كل ما احتاج مثلما وفرتُ لك أنت كل ما تحتاج، رضيت بك وأنت لا عمل لك حتى لا تجادلني، ادخل غرفتك الآن.

أخذ طارق كل ما يخصه ووضع كل أمواله في حقيبة ظهره، ثم سلم مفاتيح السيارة لـ أمل وغادر، لم يعرف إلى من يذهب؛ فهو لا يمتلك ذلك الرفيق الذي يستقبله في منزله كل معارفه وأصدقائه علاقته بهم ضعيفة.

قرر أن يتجه إلى أقرب حديقة عمومية ويفترش الأرض بها حتى صباح اليوم المُقبل ليعرف ما العمل خصوصًا بعد أن خسر كل شيء.

وهو بالحديقة جالس حمل هاتفه ليتصل بـ ريان ويخبرها بما حصل، وكلما اتصل بها تغلق الخط عليه، حادث نفسه:

- هذا رائع، كُل الأبواب أغلقت في وجهي، أنا نكرة بالنسبة للجميع، أستحق كُل ما حدث لي، فلتذهب عائلتي، ريان وكل من أعرف إلى الجحيم.

حسم أمره وقرر بشكل قاطع:

- غدًا طارق الجديد سيظهر لهذا العالم.

رمى جسده على أعشاش الحديقة، نظر إلى السماء مخاطبًا إياها:

- لن يستمر ظلامك كثيرًا، وستعود النجوم لتزينك، لن أحتاج ريان لتنير حياتي.

نام طارق ونامت معه شخصيته الخجولة ليستيقظ لنا صباح اليوم التالي طارق الجديد والمناسب لهذا العالم.

استأجر طارق شقة ليتواصل مع مُصعب ويبلغه أنه بلغ السيل الزبى ويريد أن يهاجر، أعطى مُصعب طارق رقم هاتف المُهرب الحاج مراد ليتفق معه، المال الذي خزنه طارق يكفي لتكاليف رحلته، اتفق مع الحاج مراد أن يكون موعد الرحلة بعد ثلاثة أسابيع.

على الجانب الآخر في المكتبة يوجد السيد ياسر بعد أن خسر كل موظفيه، زارت المكتبة ريان لتقتني بعض الكُتب رغم أنها تعرف السبب الرئيسي داخلها للذهاب، فور دخولها قابلها السيد

ياسر ولم تجد أي أثر لـ طارق، حاولت ألا تسأل، لكن كان للفضول رأي آخر.

- معذرة سيدي، أين طارق؟

- لماذا السؤال؟

- اعتدتُ على القدوم لأخذ الكُتب وهو كان دومًا يختار لي.

- طارق سرحته عن العمل.

- أيمكنني معرفة السبب؟

- أهو أرسلك إلى هنا؟

سكتت ريان قليلًا وفكرت أنه ربما إن أجابت بالإيجاب قد تعرف السبب.

- نعم هو من أرسلني.

- إذًا أخبريه ألا يريني وجهه هنا أبدًا.

- ولماذا؟ من حقه أن يعرف السبب

- اتصلت بي زوجة أبيه وأبلغتني أنه سرق منها مبلغًا ماليًا وأنكر أنه سرق المبلغ ثم غادر المنزل، ولأكن صريحًا، لا أستطيع المجازفة بتوظيف شخص قد يكون سارقًا عندي.

- معك حق، سأبلغه بما قُلت.

خرجت ريان مصدومة وحادثت نفسها:

- تلك اللعينة كذبت بالتأكيد، لهذا اتصل بي ذلك اليوم يالي من غبية لماذا لم أرد على مكالماته؟!

حاولت ريان الاتصال بطارق لكن دون فائدة فقد علمت أن الحل فقط يكمن في اللقاء، بعد بحث مطول لأيام عرفت أين يقطن طارق فتوجهت نحو ذلك العنوان لتلتقي به.

دقت باب شقته ليفتح، صُدم لرؤيتها، لكنه حافظ على الملامح الباردة على وجهه فقال:

- ماذا تريدين؟

- دعني أدخل أولًا ثم سأخبرك ماذا أريد.

- أخشى أن يراك الناس تدخلين إلى الشقة فيظنون ظن السوء.

- خائف على سمعتك؟

- لا، فنحنُ نعيش في مجتمع الرجل لا يعيبه شيء أخاف على سمعتك أنت.

- تبًا للمجتمع، دعني أدخل.

ضاحكًا:

- تفضلي.

دار الحديث بين الاثنين، تأسفت ريان فرد طارق:

- لا داعي للتأسف، أتمنى لك حقًا التوفيق في حياتك.

- تتمنى لي التوفيق؟ أفهم من كلامك أنك لا تريدني في حياتك.

- لا، الأمر ليس هكذا، ولكن بعد أسبوعين وبضع أيام من الآن لن أكون هنا ولن أراك مجددًا.

- ماذا تقصد؟

- سأهاجر.

- لن تفعل.

- اتفقتُ مع المهرب وجهزتُ نفسي.

- ليس لديك المال الكافي.

- لدي ما يكفي لأصل إلى هناك.

- لكن ستحتاج أيضًا إلى بعض المال هناك لتحل بعض الأمور.

- سيسهلها الله عز جلاله.

بعد جدال طويل:

- سأذهب معك.

- بالطبع لا.

- سأهاجر معك، أنا أيضًا لا أريد البقاء هنا.

- لن أدعك تجازفين مثلي.

- إن رفضت أن أذهب معك والله العظيم سأذهب وحدي.

- لن تفعلي؟

- والله سأفعلها.

بعد جدال نجحت ريان وأقنعت طارق ليوافق على ذهابها معه، تكلمت ريان:

- سأبيع شقتي ونستفيد من المال لنستقر في أوروبا.

- طبعًا لا.

- لماذا؟

- أولًا ستعودين إلى ليبيا يومًا ما وستكونين بحاجة إلى شقتك، ثانيًا أن تأخذي مبلغًا كبيرًا معك أمر خطير فقد يأخذونه منك.

- والحل؟ سيارتي إن بعتها لن يكفي المال الذي سأحصل عليه منها.

- سيارتك تساوي خمسة آلاف دينار وهو مناسب لتدفعيه للمهرب.

- وماذا بعد وصولنا لأوروبا؟ نحتاج إلى المال ولو مبلغ بسيط، سيارتك أليست باسمك؟

- لا هي باسم زوجة أبي، لولا ذلك لقمت ببيعها، على كل حال دعي هذا الأمر عليَّ، صحيح أنتِ لم تكوني مقتنعة بأمر الهجرة هذا فلماذا غيرتِ رأيك بهذه السرعة؟

- يُقال حارب من أجل من تُحب وأنا أحبك يا طارق.

ابتسامة عريضة اعتلت وجه طارق:

- أعرف أنكِ تحبينني وأنا أحبكِ يا ريان.

- والآن؟ كيف سنحصل على المزيد من المال؟

- دعي هذا الأمر عليَّ سأجدُ حلًا، أريحي رأسك وكوني مستعدة، سأحتاجك الأيام المقبلة في أمر واحد.

- ما هو؟

- إن أنجانا الله من الغرق ووصلنا إيطاليا سنتواصل مع صديقي هناك ليساعدنا، سنطلب اللجوء هناك بحيث نبلغهم بأن منزلنا احترق بعد زواجنا بسبب صاروخ عشوائي وسيصدقون لأنهم يعلمون بالحرب في ليبيا.

- لكن ليس لدينا منزل مُحترق.

- لا تقلقي، هذا الأمر اعتنيتُ به، سنذهب إلى أول منزل متضرر من الحرب ونسجل فيديو داخله كدليل وسنزور أوراقًا ثبوتية للمنزل في حال أرادوا أي دليل أن المنزل لنا.

- أنت ذكي يا طارق اهتممت بأصغر تفاصيل، الآن ينقصنا المال فقط.

- يا مزعجة أبلغتك المال لا تفكري فيه، سأجدُ أنا طريقة للحصول عليه.

- انتظر لحظة، أنت قُلت احترق منزلنا بعد زواجنا أتقصد....؟

- نعم سنتزوج، نحتاج إلى عقد زواج يثبتُ أنك زوجتي.

ابتسمت ريان بخبث لطيف:

- أنت تريد أن نتزوج لأنك تحبني وليس من أجل الهجرة، صحيح؟!

- من قال ذلك؟

- عيناك.

- تحلمين؟!

- أحلم بماذا؟ الزواج بك؟ ستصبح زوجي يا جميل

- مجنونة أنتِ، في الأيام القادمة علينا إنهاء إجراء الزواج والذهاب للتصوير قي أحد المنازل المتضررة، لا وقت لدينا.

عادت ريان لمنزلها ليُفكر طارق كيف يحصل على بعض المال، مرت الساعات وأتى الليل ليُطرق باب شُقة طارق على غير عادة، ظن أنها ريان وتوجه ليفتح الباب وما إن فتحه حتى قابله ثلاثة شباب، جلبوا الشر معهم، قال طارق:

- تفضلوا.

صاح أحدهم:

- أنت تفضل هذه.

وبعد أن أنهى كلامه سدد لكمة إلى منتصف وجه طارق لينقض الثلاثة على طارق بين ركلات وصفعات، يتألم طارق والدماء

تتساقط من وجهه المتضرر، يحاول المقاومة لكن دون فائدة فهو شبه فاقد للوعي، سقط على الأرض ليهبط أحدهم إليه.

- إن لم تذهب غدًا لزوجة أبيك وتعتذر لها فنعدك كُل يوم لك نصيب من الضرب، مفهوم؟

لملم طارق أشتاته وجلس يضحك، تعجب الجميع من ضحكه رغم الضرب المبرح الذي تلقاه، نطق طارق:

- مفهوم.

خرج الثلاثة ليخاطب نفسه:

- وجدتُ الطريقة للحصول على المال الذي أحتاجه للهجرة.

استعاد طارق الذكريات، لقاءه الأول بزوجة أبيه، وكيف خرجت أمامه من غرفة النوم متزينة بذهب والدته، وكأنها تقهر طفلًا لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره بأنها حلت محل والدته، قال:

- ذهبُ أمي لي أنا، سأنتزعه من تلك العجوز الشمطاء.

اتصل طارق بـ ريان ليبلغها بكل ما حدث، استوضحت:

- كيف عرفوا مكانك؟

- كما عرفته أنت، لا شيء يخفى في هذه المدينة، على أي حال سنخفف اللقاء بين بعض، في الأيام القادمة سننهي أمر زواجنا والتصوير في المنزل المتضرر، هل لديك موكل؟

- نعم، شيخ مسجد حينا، شخص طيب ومتعاون.

- جيد أبلغيه أن هناك من يريد الزواج بك دون خطبة أو أي تفاصيل أخرى، سأكلم مأذونًا ينهي لنا الأمر سريعًا.

- جيد.

- أنا سأعود إلى منزل العائلة حتى يأتي اليوم المحدد.

- وماذا عن المال؟

- قُلت لك سابقًا سأحصل على المال وفعلت.

- إن أردت يمكنني أن أقترض من واحدة من صديقاتي.

- لا، كفاك، ولا تسأليني مرة ثانية عن هذا الموضوع رجاءً.

عاد طارق وتأسف لزوجة أبيه ووعدها بأنه سيكون مطيعًا، مرت الأيام، والخطة سارت كما يريدها طارق تمامًا، أصبحت ريان زوجته رسميًا والعقدُ بيده، صور الاثنان الفيديو بأحد المنازل المُدمرة حيث وقفت ريان لتقول كيف أضرت الحرب بزواجهما، وكيف أن حياتهما قد انتهت، وغيرها من الأكاذيب.

تبقت ثلاثة أيام على الموعد، اتصلت ريان:

- اشتقتُ لك زوجي العزيز، لا أصدق أننا لم نلتق إلا يومًا واحدًا منذ عودتك لمنزلك.

- اصبري يا عزيزتي، ثلاثة أيام فقط وسنكون معًا، أنا وأنتِ فقط.

- أحبك طارق.

صباح اليوم المُقبل هو موعد رحلة صديقينا، عند غروب الشمس خرجت أمل رفقة بناتها الثلاثة وبقي طارق مع أبيه وحدهما بالمنزل، عرف طارق أنها اللحظة المناسبة، دخل الغرفة بينما كان والده نائمًا على سريره وجهاز التغذية متصل به، دخل يفتش الغرفة، سأل الأب عمر:

- ما الذي تبحث عنه يا بُني؟

- ذهب أمي.

- ولمَ تريده؟

- أريد أن أبيعه، أحتاج بعض المال.

- لكن أمل ستغضب.

- فلتحترق أمل لا يهمني.

- أرجوك يا بني لا نريد مشاكل.

- ذهبُ أمي لا أحد له الحق في التصرف فيه باستثنائي، ابق مكانك ولا تتدخل.

يحاول الأب الوقوف لكن العجز يمنعه، لم يجد طارق سوى الأساور، حادث نفسه:

- تبًا يبدو أنها ارتدت العقد، لا يهم، حتى الأساور تكفي للحصول على بعض المال رغم أنني كنتُ متأملًا في مبلغ أكبر، ابتسم والتفت إلى أبيه متحدثًا:

- إلى اللقاء يا من جعلتني عبدًا ذليلًا.

لحسن حظ طارق أن أمل أعطته مفاتيح سيارته فانطلق متوجهًا إلى سُوق الذهب ليبيع الذهب، ثم جمع كُل المال واتجه إلى شقة ريان، تكلم:

- فلنبقِ فقط ٣٠٠ دينار مصاريف، أما باقي الأموال كلها سأقوم بتحويلها إلى يورو.

- الحاج مراد يقبل العُملات الأجنبية؟

- هو أساسًا يُفضل الدفع باليورو، مهرب خمس نجوم، طلب ٥٠٠ يورو للفرد، مع سعر الصرف اليوم سنحصل على ٣٠٠٠ يورو مقابل هذا المال، ١٠٠٠ للمُهرب والباقي سنخبئه لرحلتنا، أريدك أن تجهزي أحد قمصانك، المُهرب لا ثقة به، وقد يهددنا بأخذ أموالنا، لذلك حين أحضر المال أريدك أن تضعيه داخل القميص وتخيطي القميص من الخارج، حتى إن حدث تفتيش لن يجدوا المال.

- فقط أحضر المال وسأزرعه داخل ملابسي لا تقلق.

- أعطني نصف ساعة وسأعود.

وفعلًا بعد أن مرت النصف ساعة عاد طارق بالمبلغ لتباشر ريان عملية الخياطة، جالس إلى جانبها وقال:

- أتعرفين نحنُ لم نقم بأي حركات رومانسية حتى الآن رغم أننا متزوجان وأنتِ حلال لي.

- أهذا وقت للتفكير في مثل هذه الأمور؟

- معك حق.

- أتريد قُبلة؟

- أهي مجاملة لأنني طلبت حركات رومانسية أم من قلبك؟

- مجاملة.

- حسنًا أريدها.

- متى سنخرج من الشقة؟

- الساعة السادسة صباحًا.

- وماذا سنفعل بالسيارة؟

- سنتركها بالمطار.

- نسيت، ماذا لو أبلغت عنك تلك العجوز الشمطاء.

- ستبلغ لكن أعتقد غدًا فالآن ليل، وحتى إن ذهبت إلى مركز الشرطة للإبلاغ عن سرقة أساور ذهب صغيرة وسيارة لا تساوي ٣٠٠٠ دينار لا أعتقد أن الشرطة سيأخذون الأمر بهذه الجدية، أو على الأقل حتى الغد، وفي الغد سنكون نحن بطرابلس.

- وماذا إن تم الإمساك بنا من الشرطة في طرابلس بعد الإبلاغ.

- أنتِ غبية، أنسيتِ أن للشرق الليبي حكومة والغرب الليبي حكومة أخرى! لذلك المجرم في الشرق بريء في الغرب والعكس

صحيح.

- أنا لا أحب السياسة.

- ولا أنا، لكن هذه أمور معروفة، أنتِ أكملي خياطة وأنا سأنام قليلًا.

صباحًا تجهز الاثنان لينطلقا، ساعة تفصلهما على إقلاع الطائرة، أخذا طريقهما نحو مطار بنينا الدولي.

استخبر طارق:

- أكل الأوراق بالحقيبة؟

- نعم.

- عقد زواجنا، شهاداتنا الجامعية، عقد المنزل المزور.

- كلها لا تقلق.

- جميل.

- حين نصل بإذن الله إلى ايطاليا ماذا سنفعل؟

- بشهادتي الجامعية سأبحث عن عمل كمبرمج، أنا مبرمج محترف أجيد الكتابة في مجموعة من لغات البرمجة بالإضافة إلى خبرتي في عالم الاختراق.

- ولماذا لم تعمل كمبرمج بليبيا بدل أن تكون موظفًا بمكتبة؟

- سوق العمل كمبرمج في ليبيا ضعيف جدًا.

الطريق مريح، ولا توجد أي عقبات، فقط نقطة تفتيش واحدة تفصلهم عن الوصول إلى المطار، ما إن اقتربوا منها بخوف نطقت ريان:

- ماذا ولو أبلغت عنك زوجة أبيك وتم فعلًا التعميم عنك؟!

- يا فتاة أخبرتك أن هذا الأمر من سابع المستحيلات.

مرا من النقطة، شرطي أسمر البشرة خشن الملامح واقف، أطلق طارق السلام وأكمل طريقه ليصيح الشرطي:

- توقف توقف.

صُدم طارق وريان بخوف قالت:

- لقد كُشفنا.

اقترب الشرطي الأسمر من السيارة وأمر:

- اركن يمينًا.

أوقف طارق السيارة يمينًا بينما صرخ الشرطي لأحد زملائه ليقف مكانه ريثما يتفقد أمر طارق، توجه الشرطي نحو طارق ليضع يده على باب السيارة متحدثًا:

- أتظن أن الأمر بهذه السهولة؟

تغير لون طارق وتسارعت دقات قلبه، علم أنه كُشف فسأل والكلمات تخرج من فمه بصعوبة:

- ماذا هناك حضرة الشرطي؟

- ماذا تفعل معك فتاة سمراء؟ لا تقُل لي إنك سائق تاكسي ! لو تاكسي لماذا تجلس الفتاة في الكرسي المجاور لك وليس الخلفي؟

هنا عادت نبضات قلب طارق إلى وضعها الطبيعي وفهم كل شيء، قال بثقة:

- أنت عُنصري ! أنا الآن قادر على الإبلاغ عنك، توقفني وتتهمني أنني خرجتُ مع فتاة للهو، طبعًا أنت لا تتوقع أن يتزوج أبيض بسمراء أو أسمر ببيضاء، هذه العقلية المريضة التي لازالت بشريحة كبيرة من مجتمعنا يجب أن يقضى عليها كلما رأوا رجلًا أبيض مع فتاة سمراء في سيارة أو العكس ظنوا بهم ظن السوء، زوجتي أعطيني عقد الزواج.

أخرجت ريان عقد الزواج ليريه للشرطي الذي بدأ في التأسف والاعتذار، قال طارق:

- عيب عليك ما فعلت، يجب أن تعالج نفسك يا رجل.

ضغط طارق البنزين مغادرًا دون أن يبالي بالشرطي، متوجهًا نحو المطار، التفت إلى زوجته قائلًا:

- لتصدقي أنه ليس البيض فقط عنصريين.

وصل الاثنان للمطار لينتظرا موعد الرحلة وينتقلا للمرحلة الثانية من المغامرة.

***

بحر صبراتة

هـبطت الطائرة وترجل الرُكاب إلى مطار معيتيقة الدولي في طرابلس، توجه صديقانا للتفتيش الروتيني بالمطار.

- تاكسي، تاكسي.

الاستقبال المُزعج من سائقي الأجرة الذين يبحثون عن الزبون الذي يرون فيه قوت يومهم، أحدهم لاصق لطارق وظل يلاحقه حتى التفت طارق صوبه مجيبًا:

- نعم، أريد أقرب محطة حافلات من هُنا.

استفسر السائق:

- ولماذا تريد محطة حافلات؟ أنا أستطيع إيصالك إلى أي وجهة تريدها.

- لا أنا أريد فقط محطة الحافلات.

همست ريان:

- دعه يوصلنا.

أجابها طارق:

- لا تتدخلي.

ثم أكمل كلامه مع سائق التاكسي:

- أستوصلنا لأقرب محطة حافلات أم نبحث عن غيرك؟

- حسنًا يا رجل لماذا كُل هذه العصبية سأوصلك إلى أقرب محطة حافلات.

ابتعد طارق قليلًا عن السائق ليتصل بالمُهرب ويبلغه أنه وصل إلى طرابلس، رد الحاج مراد بأنه فور وصولهما إلى صبراتة يتصلان به وسيرسل له سيارة لتأخذه.

صعد الزوجان السيارة لينطلق السائق باحثًا عن أول محطة حافلات، تحدث:

- من لهجتك يتضحُ لي أنك شرقاوي.

اللهجات في ليبيا تختلف من الشرق والجنوب والغرب بشكل كبير، يُطلق العنصريون خصوصًا من الشرق والغرب على الطرف الثاني شرقاوي غرباوي.

أجاب طارق:

- نعم شرقاوي.

- يا أهلًا بك.

يُحاول السائق فتح حديث مع طارق، وفي كُل مرة يُغلق له طارق أبواب الحديث حتى وصلوا إلى محطة حافلات.

أخذ السائق المال وترك خلفه غبار سيارته يخنق الثنائي، وهي منزعجة قالت:

- يا له من وقح، لماذا فعل هذا؟

أجاب طارق:

- هناك احتمالان، إما أنه غضب لأننا لم نذهب معه أو لأنه لا يُحب أهل الشرق خصوصًا مع ترديده لكلمة شرقاوي.

- صحيح لماذا لم توافق أن يوصلنا إلى صبراتة مباشرة، أفضل من أن توصلنا حافلة.

- لن أحتمل إزعاجه، بالإضافة إلى أنه سيطلب أضعاف ما سندفعه للحافلة.

توجه الاثنان إلى محطة الحافلات، وسأل طارق عن أول حافلة جاهزة للذهاب إلى صبراتة، قالت ريان:

- أنظر يا طارق متجر بقالة لنأخذ كعكًا وعصائر؛ فنحن لا نعرف، قد تكون الطريقة طويلة.

أخذ الاثنان ما يلزمهما من البقالة، ثم عادا ليصعدا الحافلة وينتظرا حتى تمتلئ وتنطلق إلى آخر وجهة لهم في ليبيا قبل رحلة الموت.

طارق شارد يُفكر:

- لا أصدق أنا الآن مُقبل على هجرة ولم أفكر بأي أحد، لا أحد سيحزن على غيابي، وكأنني بنيتُ حياتي على أسس خاطئة، الخوف الذي عشته مع تلك العجوز الشمطاء منعني من الاختلاط بالناس، وها أنا الآن باستثناء ريان لا أحد لدي، حتى أبي لا أشعر بأي اشتياق ناحيته، قاطعت حبل أفكاره ريان:

- ما الذي يشغل بالك؟

نظر إليها مبتسمًا:

- أنا محظوظ بك.

قال سائق الحافلة بصوت مرتفع:

- سننطلق بإذن الله إلى مدينة صبراتة.

جلست إلى جانب طارق وريان امرأة مسنة فعلم طارق أن هناك ثرثرة طويلة ستلاحقه طوال الطريق، تراقب ريان شوارع طرابلس من نافذة الحافلة فلاحظ طارق:

- إلى ماذا تنظرين؟

- شوارع عاصمتنا، أأخبرك بأمر؟

- ما هو؟

- تمنيتُ أن أعيش بكل مدن ليبيا لأعرف طبيعة شعبنا بمختلف فئاته، الآن وأنا أنظر لطرابلس أشعر وكأنها لا تختلف عن بنغازي مُطلقًا.

- معظم المدن لا تختلف كثيرًا عن بعضها، نفسُ المباني، نفس تفاصيل البناء، نفس الشوارع، الاختلاف في طبيعة الحياة.

يتبادل الاثنان طرف الحديث لتخرج بعدها ريان الكعك لتأكل هي ورفيقها، ركزت على العجوز التي تجاورهما فكان الذوق واجبًا أن تمد لها كعكة وتُصر أن تأخذها، أجابت العجوز:

- يا بنيتي أسناني ضعيفة لا تقوى على كسر هذا الكعك.

- لا تقلقي يا أمي، الكعكُ هش وسريع الذوبان، الطريق طويل إلى صبراتة تسلي معنا به.

أخذت العجوز الكعك وأكلت، بعد أن حمدت الله التفتت إليهما قائلة:

- من لهجتكما يبد أنكما من الشرق الليبي.

أجابت ريان:

- نعم من بنغازي.

- يا أهلا وسهلا بأهل بنغازي الحبيبة.

ابتسم طارق؛ فالترحيب كان واضحًا من العجوز على غرار سائق التاكسي، بعد تعرف سريع سألت:

- هل لديكما أحدٌ في صبراتة؟

- لا...

قاطع طارق ريان:

- نعم، نعم لدينا ابن عمي يعيش بصبراتة.

لزمت العجوز الصمت، استغرب طارق:

- أهناك خطبٌ ما؟

- لا شيء يا بُني، فقط كان الأنسب أن تأتي إلى صبراتة في وقت

آخر.

- لماذا؟

- ألم يخبرك ابن عمك؟

- يخبرني بماذا؟

- سأقصُ عليك ما يحدث بصبراتة بالضبط، أنا من صبراتة ومعظم رُكاب الحافلة من مواطني صبراتة أي لا يأتي إليها أي زوار في الوقت الحالي.

- والسبب؟

- منذ أشهر والاشتباكات مندلعة بين عصابة تهريب البشر وغرفة مكافحة تنظيم الدولة والهجرة غير الشرعية، من حين لآخر تنشب نيران القتال في بعض أحياء المدينة بين الطرفين المسيطرين عليها لذلك لا أحد باستثناء السُكان يجرؤ على القدوم، ارتعدت ريان مما سمعت ورسمت الصدمة على وجه طارق الذي بكُل توتر نطق:

- حتى الآن القتال؟

- حتى هذه اللحظة، لكن في بعض الأحيان يعُم الهدوء المدينة حسبت الاتفاق بين الطرفين، غرفة المكافحة تُحاول الحد من هجرة الناس عن طريق شواطئ صبراتة وتحاول أيضًا الحد من دخول أبناء تنظيم الدولة إلى المدينة لكن قوتها ليست بالكبيرة بسبب قلة الدعم.

- ومن أين يتلقى المهربون الدعم؟

- من تجارة البشر يا بُني، العائد الذي يدخل عليهم مهول جدًا ويعادل ما يدخل على غرفة المكافحة إن لم يكن أكثر.

وشوشت ريان:

- فلنعد يا طارق، فلنعد أفضل من أن نصبح ضحايا حرب لا ناقة لنا بها ولا جمل.

أثبت نظراته بأعينها وهمس:

- إن قُلت إنني لستُ خائفًا سأكون كاذبًا لكن ما أنا متأكد منه أنني لن أفارقك، حين اخترنا الهجرة هذا يعني أننا وضعنا حياتنا على شفرة الموت، فالعبور من البحر مجازفة أفنت الآلاف، لذلك أن نحاول الفرار من حرب في صبراتة ليس بالأمر الصعب، ثُم تذكري أننا عشنا في بنغازي مثل هذه الحرب لسنوات أي أننا جاهزون لأي ظرف.

- ولكن...

- ريان إن أردتِ العودة فعودي لكن آسف لن أعود معك فقد قررتُ ولن أتراجع.

- أتعلم معك حق، لماذا أخاف؟ ليس لدي ما أخسر، آسفة على إلحاحي المستمر.

- فتاتي الجميلة لا تتأسفي.

قاطعتهما العجوز:

- ما الذي يشغلكما يا عصفوري الحب؟

- لا لا شيء يا أمي.

- حسنًا إذًا أعطياني قليلًا من هذا الكعك فأنا حقًا جُعت.

ضحك الاثنان لتعطي ريان الكعك، أكملت العجوز كلامها:

- لا تقلقا من الأوضاع في صبراتة، أعرف أنه لم يكن لطيفًا أن أخبركما بهذه الطريقة المخيفة لكن المعارك في أغلب الأحيان بعيدًا عن الأحياء السكنية.

استمر الحديث كما توقع طارق تمامًا، بعد ساعتين توقفت الحافلة في قلب مدينة صبراتة، ترجل الجميع لينطلق كُل أحد إلى وجهته، صبراتة هدوء وقلة ازدحام عكس العاصمة وبنغازي، العجوز ينتظرها ابنها أمام المحطة، حدثت ابنها:

- هذان الشابان الرائعان أعطياني الكعك طوال الطريق.

أرادت السيدة أن تظهر كرم أهل صبراتة بشتى الطرق، فحاولت أن تستضيف الزوجين إلا أنهما رفضا متحججين بأنهما ينتظران قريبهما الذي سيصل قريبًا.

بعد مغادرة العجوز تكلمت ريان:

- أنذهب إلى آثار صبراتة أتشوق لرؤيتها؟

مسرح صبراتة الروماني بأسر الأنظار ومقصد كُل من يأتي إلى المدينة.

رد طارق:

- أنتِ مجنونة لا وقت لدينا سأتصل بالرجُل.

حمل هاتفه ليجري المكالمة:

- أهلًا.

- أوصلت؟

- نعم أنا في محطة الحافلات.

- عشر دقائق وأكون عندك، لا تتحرك.

وكأنه شخص يُقدر قيمة الوقت بعد عشر دقائق أوقف سيارته المظلم زجاجها أمام الثنائي، أنزل النافذة مخاطبًا:

- أنت طارق؟

- بالتأكيد وأنت الحاج مراد صحيح؟

- نعم، اركبا.

صعد الاثنان إلى السيارة مع ذلك الشخص هزيل البنية وشاحب الملامح، قبل أن يتبادل الجميع أطراف الحيث، رن هاتف الحاج مراد ليردُ:

- ألو سيدي.

هُنا صُعق طارق فكلمة الحاج تُطلق على رب العمل والشخص القيادي فإن كان الحاج مراد يقول لشخص ما سيدي فهذا يعني

أنه ليس الرأس المُدبر لهذه العملية، يسترق طارق السمع قال المُتصل:

- أين أنت؟

- معي رجل وزوجته سأنقلهما إلى القاطع (أ).

- إياك، اتصلتُ بك لأخبرك أن القاطع (أ) تمت مداهمته من قبل غرفة المكافحة وتم الإمساك بكُل الذين وضعناهم هُناك.

- وماذا عن القاطع (ب)؟ هل علموا بأمره؟

- حتى الآن لا، هناك وشاية من جاسوس منا بأنه لدينا مخبأ آخر للمهاجرين لكن حتى الآن لم يعثروا على القاطع (ب)، قُمت باتصالاتي حاليًا ببعض الرجال في غرفة المكافحة ليخففوا الحملة وحصلتُ على وعد بأن يشغلوا الغرفة عن البحث حتى الغد.

- إذًا سأذهب بمن معي إلى قاطع (ب).

- لا، هناك بوابة أمنية بالقرب من القاطع، ولا نريد أن يكشف أمرنا، أبقهم معك في المنزل الذي تقطن به وغدًا فجرًا تخرج بهم إلى الشاطئ، على حسب ما قاله لي معارفي بغرفة المكافحة فجرًا ستختفي كل البوابات الأمنية لمدة ساعتين لأن لديهم اجتماعًا سريًا ستكون تلك هي فرصتنا الوحيدة لتهريب كُل الناس، ثُم سنختفي لنعيد تمركز قواتنا وبدء عمليات تهريب جديدة.

- لكن سيدي هذه مجازفة وماذا لو لم يكن لديهم أي اجتماع وكُل

هذا كان فخًّا؟

- أنا كلي ثقة بمعارفي وإن حدث وكان الأمر فخًّا فسنضطر لإشعال نار الحرب لأنه في حال فشلت عملية التهريب هذه بالكامل سينتشر الخبر وهكذا كُل من يفكر بالهجرة لن يأتي إلى صبراتة مرة ثانية وسيقل العدد والنتيجة نحن سنخسر الثروة التي تدخل علينا من هؤلاء الأوغاد.

- معك حق سيدي وماذا عن من وشى بنا أعرفته؟

أجاب بسهولة:

- عرفته وقتلته.

- هذه أخبار رائعة، صحيح رجالنا في القاطع (أ) ماذا حدث لهم؟

- استطاعوا الفرار.

- جميل.

أغلق الشخص الغامض الخط، التفت المُهرب نحو طارق وملامح القرف تعتلي وجهه.

- يا وجه النحس.

عم الصمتُ المكان، سأل طارق:

- ماذا يجري؟

ضاحكًا رد:

- وكأنك لم تتلصص على المكالمة، اسمعني سنتوقف عند محل بقالة، ستحتاج في رحلتك إلى بعض الأكل أكثر؛ فرحلتك ستكون طويلة في البحر وأحضر بعض الطعام لي.

بعد خروجهم من البقالة توجهوا إلى منزل الحاج مراد داخل حي كُل المنازل به قديمة الطراز مهترئة، هو مكان مُناسب للاختباء، ولجوا المنزل، أراهم الغرفة التي سيبقيان بها، غرفة جدرانها متشققة مكتسية بمختلف أنواع الحشرات بإنارة ضعيفة، تحدث:

- ستبقيان هنا الآن، أنا سأخرج لدي بعض العمل، نلتقي ليلًا.

مراد يرمي ناظريه صوب ريان طوال الوقت ليلحظ طارق ذلك، انتبهت ريان أن زوجها غضب من الأمر فقالت بعد مغادرة مراد لتهدئة الجو:

- حبيبي نحن متعبان، رحلتنا كانت طويلة جدًا، فلننم قليلًا حتى المساء، ثم بصوت مرتفع:

- تمزحين؟! نامي أنتِ، أنا لن يغمض لي جفن، وهذا الشيطان قد يعود في أي وقت.

- أرجوك حبيبي لا نريد المشاكل، في الفجر سينتهي كُل شيء.

- المشاكل يا عزيزتي لا أريدها لكن إن أتت سأستقبلها.

لم تجد ريان حلًا إلا أن ترمي نفسها في حُضن طارق لعل هذا يخفف قليلًا من غضبه، يمُر الوقت وريان نائمة بينما طارق لم يستطع رغم إرهاقه الشديد، أخذ هاتف ريان وقام بتحميل

متصفح تور فتعطشه للإنترنت المُظلم جعله يدخل ليشاهد بعض الفيديوهات المُرعبة كعادته القديمة.

- اليوم يا سادتي المُشاهدين سنقدم لكم عرض شوكة الموت.

بعد أن أنهى ذلك الشخص الذي يرتدي قناع ميكي ماوس جملته تقدم نحو الشخص العاري المقيد على الكرسي أمامه، أحضر شوكة مدببة من الجهتين وثبتها بشكل طولي بين أسفل رأس الرجل والقفص الصدري ولف خيط حول العنق ليثبت الشوكة ثم تحدث:

- شاهدوا الآن السحر الحقيقي.

دقائق مرت والرجل المقيد يقاوم دون أن يحرك رأسه، فأي حركة قد تسبب غرس الشوكة سواء من الرأس أو القفص الصدري، يحاول والدموع تتساقط منه، لكن سرعان ما حرك رأسه لتغرس الشوكة أسفل رأسه، يفتح فمه ليصيح فتغرس الشوكة بشكل أكبر ويخرج شلال الدم من فمه بشكل مرعب، تتناثر الدماء دون توقف، عويل الرجل لم يتوقف حتى توقفت نبضات قلبه لتغادر روحه إلى الرفيق الأعلى.

أنهى المُقنع العرض بجملة:

- هذه التقنية كانت تستخدم قديمًا للقتل، نلتقي في حلقة قادمة مع ضحية جديدة وتقنية قديمة أخرى.

بعد أن أنهى طارق المشاهدة، أغلق الإنترنت وحذف متصفح تور ثم رفع ريان ووضعها على الفراش المُغبر وقام متوجهًا إلى

المطبخ ليأخذ سكينًا ويخبئه داخل ملابسه تحسبًا لأي موقف.

في الحادية عشر مساءً فُتح باب المنزل وارتفعت الضوضاء، أيقظت الضوضاء ريان لتسأل:

- ماذا هناك؟

- يبدو أنه عاد ومعه أشخاص، انتظري سأتفقد الأمر.

- لا تخرج من الغرفة.

- كفاكِ خوفًا!

خرج من الغرفة ليجد مراد في رفقة اثنين تفوح منهما رائحة الخمر، تكلم مراد فور رؤيته لـ طارق:

- أهلًا ضيفنا العزيز، أتريد الشُرب؟

- شكرًا أنا لا أدخن حتى.

ضحك الجميع بسخرية، عاد إلى الغرفة ليجلس إلى جانب زوجته والخوف يسري بأوصاله، بعد انقضاء ساعة دخل مراد إلى الغرفة ومعه أحد رفاقه ضخم البنية، علم طارق أن خيرًا لن يحصل:

- صديقي نحتاج زوجتك قليلًا.

بغضب:

- أنت مجنون، لا تُفكر حتى.

سحب رفيق مراد بندقيته ووجهها نحو رأس طارق ناطقًا:

- وإن فكر ماذا ستفعل له؟

ربت مراد على كتف صديقه:

- لا تكن عصبيًا، طارق طيب وسيعطينا زوجته دون أي نقاش.

توجه مراد ليمسك ريان التي صرخت مباشرة، حاول طارق التدخل فضربه مراد برجله متعصبًا:

- إن تجرأت وتقدمت نحوي مرة أخرى سأجعل هذا الوحش الضخم يفرغ رصاص بندقيته في جسدك ونتلذذ بجسد زوجتك أمام أعينك، اهدأ قليلًا ودعنا نستمتع الليلة حتى يحين الموعد وتهاجر، وهناك لن يعلم أحد أننا انتزعنا شرف زوجتك، سيبقى هذا سرنا اللطيف.

ادرينالين الغضب عند طارق وصل لأقصى مراحله والحرارة سيطرت على جسده من الموقف اللعين، أمسك مُراد ريان من ظهرها ليشدها نحوه، دقت ساعة العمل واختفى التفكير في تلك اللحظة من طارق فالرد كان واجبًا، التوتر أصابه بشدة ويحاول التركيز للقيام بالحركة الصحيحة، صُراخ من الشخص الثالث خارج الغرفة:

- الشرطة، الشرطة!

دخل الثالث وتكلم بسرعة مرتبكًا:

- الشرطة أمام المنزل لنخبئ الأسلحة بسرعة.

دفع مراد ريان نحو الأرض.

- تبًا كيف عرفوا مكاننا، اذهبا وخبئا أسلحتكما سألحقكما وكذلك الخمر والحشيش.

- حسنًا.

ركض الاثنان خارجًا، وجه مراد حديثه إلى طارق وزوجته:

- غادرا المنزل حالًا، هناك باب خلفي من عند المطبخ، توجها نحو الشاطئ حاولا الاختباء هناك.

طارق لم ينسَ ما حدث من دقائق وكُل تفكيره في مراد الذي داعب جسد زوجته، هو يعلم أنه سيتحسر طوال حياته من هذا الموقف إن لم يشفِ غليله، ما إن التفت مراد للخروج حتى انقض عليه طارق ليطعنه بكتفه ويسقطه أرضًا، صُراخ مراد جعل الشرطة تندفع إلى الداخل، صاح طارق:

- لنهرب.

أخذ مسدس مُراد وتوجه نحو المطبخ، الباب موصد بالمفتاح فاستعمل رجله ليركل الباب ويقتلعه، انتبه طارق لقدوم الشرطة فأطلق بضع رصاصات لإبعادهم وغادر المنزل راكضًا رفقة زوجته، يدخلان إلى ذلك الزقاق، من فوق الكلاب النائمة يقفزان، يمينًا ثم يسارًا من الشارع المظلم، يتجنبان مجموعة المشردين الجالسين، يكملان ركضهما وسط المنازل القديمة ورائحة الهواء النقي ليلًا، يسلط القمر ضوءه عليهما، تسأل ريان:

- لماذا فعلت هذا يا طارق؟ لماذا؟

- أقسم بالله لا أعرف ماذا حدث لي ! لم أستطع احتمال فكرة أن يلمسك بهذه الطريقة المقززة ذلك المجنون، أنا لم أقتله فلا تقلقي.

- والشرطة؟

- كان يجب أن أبعدهم.

وهما يجريان فكر طارق بما فعل فضرب رأسه بيده مرددًا:

- تبًا تبًا، هذا ليس أنا، هذا ليس أنا.

صبراتة ليست مكتظة في النهار فما بالكم بالليل، رأى طارق شابًا واقفًا عند سيارته فتوجه نحوه آمرًا ريان أن تتبعه.

نظر الشاب نحو طارق وتكلم:

- أهناك خطبٌ ما؟

عيناه محمرتان بسبب ما بيده من حشيش، رفع طارق المسدس مهددًا الشاب بقتله إن لم يقله إلى الشاطئ.

تصرفات طارق العشوائية تدل على أنه يريد أن يفر خارج ليبيا بأي طريقة، أمسكت ريان بطارق لتهزه:

- ماذا تفعلُ يا مخبول؟

- لا حل آخر، الضرورات تبيح المحظورات.

صعد الاثنان إلى السيارة ليوصلهما الشاب، يضحك:

- ابعد سلاحك يا صديقي، سأوصلك إلى حيث تريد، لكن ستدفع لي فأنا سائق أجرة.

- حسنًا سأدفع لك.

الشاب منتشٍ جدًا مما ساعد طارق وزوجته أن يذهبا إلى الشاطئ دون أي مشاكل، فور وصولهم أعطى طارق بعض المال وإكرامية أيضًا لينسى ما حصل، الشاطئ خال من الناس وساكن، الرياح الباردة تعصف بالمكان، القوارب الصدئة تزين الشاطئ، قوارب تحكي قصصًا بعضها جلبتها المياه بعد أن أغرقت ركابها وأخرى تركها أصحابها، السماء تكتسيها النجوم، أخذت ريان نفسًا:

- والآن ماذا؟

- امسكي الحقيبة سأخلع قميصي وأغتسل من الدماء حتى لا يكشف أمري، ثم سنختار قاربًا نختبئ به حتى الفجر.

بعد أن اغتسل، دخل الاثنان داخل قارب صدئ رائحة القمامة تغطيه، جلسا ينظران لبعض وتفكيرهما: هل حقًا سيهاجران أم ستفشل الخطة؟ حاول طارق أن يلطف الجو، فمد يده نحو خد ريان لتدفعها بعيدًا:

- أنت كُنت شخصًا آخر، وكأنك لست طارقًا، بل شخصًا آخر مخيفا مستعدا للقتل في مقابل الوصول إلى مبتغاه.

- ريان أنا لستُ كذلك، ما حدث لأنني فقط أحبك أحبك أحبك، كيف لي أن أسكت وذلك اللعين لمس جسدك؟

- والشرطة؟ لماذا أطلقت الرصاص عليهم؟

- ارتبكت والله ارتبكت.

- والشاب الذي أقلنا كيف تجرأت وهددته هكذا؟

- أخفته فقط حتى يوصلنا، أقسم بالله أنني لم أنوي سوءًا.

- طارق نحنُ إن وصلنا إيطاليا فسنكون معًا، في هذه الحياة معًا، كيف لي أن أكون مع شخص مُتقلب قد يضربني في أي وقت إن فقد أعصابه؟

- لا لن أفعل هذا.

- وما الذي سيضمن لي هذا؟

- أقسم لك أنني لست هكذا، أنا لم أقم بمشكلة في حياتي، ما حدث نتيجة أمر لا يطاق.

يحاول طارق إرضاء ريان، لكن دون فائدة، ففقد الأمل وجلس وملامح الغضب مرتسمة على وجهه، أحست ريان بالذنب فسألت:

- أحقًا فعلت ما فعلت من أجلي؟

- لا، لأنني مجنون فعلتُ ذلك.

- توقف، أنت فعلت ذلك لأنك تحبني.

- وبما أنك تعرفين أن ما حدث من أجلك لماذا كُل هذا؟

ضاحكة أجابت:

- قلبت الطاولة عليَّ وأصبحتُ أنا الظالمة؟

مر الوقت واقترب الفجر.

- هل ستأتي العصابة فعلًا؟

- آمل ذلك؛ لأنني مزعج جدًا من الحشرات التي تجد من جسدي مستقرًا.

- وماذا لو وشوا بنا أننا هاجمناهم؟ سنقتل لو علم رئيس العصابة ذلك.

- بكل تأكيد الشرطة ألقت القبض على أفراد العصابة، ولن يستطيعوا التواصل مع رئيسهم حتى الغد، لذلك لا تقلقي، أنا متأكد أننا سنُغادر على خير.

يطمئنها وهو المُحتاج إلى الطمأنينة، في تلك اللحظة الخوف هو سيد الموقف، وطارق، رغم الرائحة الكريهة والخوف الشديد، غلبه النوم ليسقط مغشيًا بأحضان ريان، أتى الفجر وصوت عجل السيارات اعتلى الشاطئ الهادئ دون الحاجة إلى أن توقظه، صحا طارق ليراقب، من ثقوب القارب، عددًا من السيارات توقفت، ترجل مجموعة رجال مسلحين ومعهم عدد مهول من المهاجرين.

أمسك طارق بيد ريان ونطق:

- الآن لحظتنا.

ألقى بمسدسه داخل القارب، خطوة تتبعها أخرى بعد ترجلهما خارج القارب، لاحظهما أفراد العصابة فصوبوا أسلحتهم نحوهما، سأل شخص ضخم ملامحه عادية المميز به أنه أحول:

- من أنتما؟

الردُ كان من طارق:

- نحنُ كنا مع رجل يدعى مُراد والشرطة داهمت المنزل الذي هو به، أمرنا بالهروب والذهاب إلى الشاطئ لانتظارك.

ضرب الضخم رأسه:

- تبًا، لهذا هاتفه مُقفل.

التفت إلى رجاله مرددًا:

- انزلوا القوارب لننهي العملية سريعًا، لا يوجد لدينا وقت.

ذلك الأحول من إطلاقه للأوامر كان واضحًا وجليًا أنه هو الرأس المدبر للعملية، مد يده نحو طارق قائلًا:

- أعطني المال.

أخرج من الحقيبة الألف يورو ليسلمهم فرفض قائلًا:

- أعطني الحقيبة.

أعطاه طارق الحقيبة دون رد؛ فملامح الرجل لا يبدو عليها أنه يحب النقاش، أعطى أحد رجاله الحقيبة ليفتشها فلم يجد بها إلا الطعام، قال الرئيس:

- أليس معكما غير الألف؟

والارتباك واضح عليه أجاب طارق:

- نعم.

أمر الأحول أحد رجاله أن يفتش الاثنين، فتش طارق فلم يجد إلا جواله فقال فرد العصابة:

- أعجبني، هل يمكنني أن أخذه يا رئيس؟

- هو لك.

بعد أن انتهى من تفتيش طارق توجه نحو زوجته ليفتشها فقام طارق مباشرة بدفعه ثم أخرج قطعة حديدية وجدها بالقارب مهددًا، ضحك رئيس العصابة وتحدث:

- تعجبني شجاعتك لكن زوجتك ستُفتش.

أشار لواحدة من النساء المُهاجرات لتفتش زوجة طارق، فتشتها ولم تجد معها أي مال، طارق يتمنى ألا تجد المُفتشة هاتف ريان؛ فهو الأمل الأخير لهما لعرض فيديو المنزل المحترق بعد أن أخذت العصابة هاتفه.

كان الأمر الصاعق أن المُفتشة لم تجد هاتف ريان فخاطب طارق نفسه:

- تلك الغبية يبدو أنها لم تحضر هاتفها معها!!

جهز رئيس العصابة قوارب الموت وعددهما اثنان، القوارب

خشبية مزودة بمحركات تنقلهما إلى منتصف البحر، واحد للعائلات وواحد للشباب كلهم من نيجيريا وغانا باستثناء اثنين جزائريين:

- سأعطيكما جهاز ثريا، بعد أن تتجاوزا المياه الإقليمية الليبية اتصلا بأرقام هيئات الإغاثة التي ستكون بانتظاركم لتأخذكم.

بعد صعود الرُكاب، بقي طارق وزوجته آخر اثنين، قال الأحول:

- الآن دوركما اصعدا القارب.

توجها نحو قارب العائلات فرفع سلاحه ناطقًا:

- لا ستكونان ضيوفًا بقارب الشباب.

صُدم طارق:

- ماذا تقول؟

- مثلما سمعت، هذا جزاؤك لأنك لم تدع رفيقي يفتش زوجتك، أتظن أنه قد خلق من يكسر كلمتي؟

- لن أسمح بهذا؟

- لا خيار آخر، سأعد عشرة، إما أن تصعد القارب أو سأفرغ رصاص بندقيتي بجسدك أنت وفتاتك.

رئيس العصابة وطارق في قلق، همست له ريان:

- حتى وإن صعدنا مع شباب لن يحدث لي أي مكروه؛ فأي محاولة للحركة أثناء انطلاق القارب داخل البحر سينقلب

وسيموت الجميع، لن يتجرأ أحد على فعلها، أرجوك هذه المرة يا طارق استمع إليَّ ولا تتهور.

قبل أن ينطق بالرقم عشرة وافق طارق ليصعد مع زوجته القارب الخشبي.

***

رحلة قارب الموت

يـضربُ الـبحر الـقوارب ليـدفعها يمـينًا ويسـارًا، بينمـا يتـمسك الـرُكاب جيـدًا حتـى لا يتسـاقطوا وليصـبحوا طعـامًا للـوحوش النائمة بالقاع، مع مرور الوقت افترق القاربان في عرض البحر.

قلق شديد مصحوب برياح قوية تهز القارب مرة وأمواج أقوى تهز القارب ثانية، الأفكار السوداوية سيطرت على عقُول الجميع، فهل سيصبحون طعامًا لمخلوقات البحر التي يرون ظلالها أمام أعينهم؟

بدأ ما لم يرده طارق يحصل، أيادي الشباب الجالسين إلى جوار زوجته تطال جسدها بخفة، الوضع متوتر جدًا، الشباب كلما رأوا أن طارق غير منتبه يضعون أياديهم على جسد ريان التي ظلت ساكتة رغم احتراقها من الداخل، حادثت نفسها:

- اصـبري يـا ريـان إن أبلغتِ طـارق فسـيهاجمهم وسـنموت غـرقًا، اصبري يا ريان.

مـن يقـود الـمركب الشاب الجزائري وهو من معه جهاز الثريا لتـحديد وجـهتهم والاتصـال فـور اجتيـاز المياه الإقليمية، تـمر الساعات ليحدث ما لم تتمنَ ريان، وينتبه طارق للأيادي الممتدة على جسد زوجته فثار غاضبًا ليلكم أحد الشباب فيهتز القارب، والشاب النيجيري لم يسكت ليرد الضربة، حاول الجزائري قائد الرحلة أن يهدأ الوضع لكن فشل، فتقع الكارثة ويصمت الجميع، ليركزوا أنظارهم نحو المحرك الذي اختفى صوته وتوقف عن العمل، سأل طارق والعرق يتساقط منه.

- أرجوك قُل لي أنك أنت من أطفأت المُحرك.

يجيب الجزائري وهو يرتعد:

- لا لقد توقف لوحده.

- حاول معه وشغله.

يحاول ويحاول أن يدير المحرك لكن دون فائدة، القلق سيطر على القارب وصراخ الرُكاب أطلق دويه بالبحر لكن لامجيب، بخوف استفسرت ريان:

- ما العمل الآن؟

لا أحد يجيب، فلا إجابة متوفرة، قارب صيد صغير اقترب، لمعت أعين الجميع ففي نظرهم القارب الصغير يشكل طوق النجاة لهم، أصبح قارب الصيد على بعد بضع خطوات، اهتز قارب المهاجرين وكأنهم يريدون القفز نحو ذلك القارب، يريدون فقط النجاة، أخرج الصياد مسدسًا وتكلم:

- أنا هنا لمساعدتكم، قاربي صغير ولا يسع إلا عددًا قليلا، لذلك من يفهم لغتي أو بالأصح من هو عربي فليرفع يده ليأتي معي.

فقط طارق وريان والشابان الجزائريان هم من فهموه، أما البقية من نيجيريا وغانا فلم يفهموا حرفًا مما قال، حرك قاربه ليصبح ملتصقًا بقارب المهاجرين وطلب من ريان وطارق والجزائريين الصعود، يحاول البقية التحرك ولكن التهديد بالسلاح يمنعهم من التقدم خطوة.

بعد أن صعد الأربعة، سأل الصياد:

- من منكم يجيد اللغة الإنجليزية؟

فأجاب طارق بالإيجاب ليطلب منه الصياد أن يُبلغ المهاجرين أن لا يقوموا بأي حركة وينتظروا، سيبحث عن سفينة تنقذهم.

فعل طارق ما طُلب منه ليتوجه الصياد نحو مقود المركب منطلقًا، قبل أن يتحرك قفز أحد المهاجرين على القارب ليتمسك بأطرافه وجسده بالماء، انتبه الصياد له فأخرج سلاحه ووجهه نحوه، طارق صاح:

- ماذا تفعل؟

- سأقتله؟

- أنت مجنون، دعنا ننقذه.

- إياكم والاقتراب مني أو سأقتلكم أنتم أيضًا، لن يصعد أي أفريقي إلى المركب.

كلمة أفريقي يطلقها العرب على أبناء الغرب الأفريقي ولا تُعتبر إهانة أو عنصرية بل هي للتعريف العام.

يحاول الشاب التشبث بالمركب للصعود، يكاد يصعد لتخترق رصاصة رأسه وتسقطه جثة تطفو على البحر، العويل من المهاجرين بسبب فعلة الصياد الوحشية، ريان تبكي وتُكرر:

- لماذا فعلت هذا يا عديم الإنسانية؟ لماذا؟

توجه نحو مقود المركب وانطلق، الصمت سيطر على المكان باستثناء ريان التي لم تتوقف عن البكاء وتوبيخ الصياد، أخذ نفسًا وقال:

- سابقًا قابلني مركب به مجموعة من الأفارقة المهاجرين كان مركبهم مُعطلا مثل الموقف الذي حدث معكم فساعدتهم وركب جميعهم معي، أردتُ العودة بهم إلى الشواطئ الليبية فهاجموني، ولولا أن سفينة خفر سواحل ليبية مرت وأنقذتني لكنت ضحية هجومهم الشرس.

نطق الجزائري:

- أنت لن تعود بنا صحيح؟

- سنبحث الآن عن أي سفينة تنقذ بقية المهاجرين، إن كانت سفينة خفر السواحل فحظكم تعيس وستعودون جميعًا إلى ليبيا وإن كانت إحدى منظمات الهجرة فأبشركم بالهجرة إلى إيطاليا.

ساعة مضت ولا أثر لأي سفينة، البحر يعمه السكون، باتفاق من الجميع قرروا العودة والبحث عن مركب المهاجرين ليتفقدوا أحوالهم.

جُثث طافية، أعداد كبيرة، المركب غرق والأسماك تنهش اللحم البشري، البحر اكتسى باللون الأحمر، قارب الموت حقق ما ذُكر باسمه وأماتهم، في وقت واحد رددوا:

- إنا لله وإنا إليه لراجعون.

قال طارق والدموع على خديه:

- تبًا لذلك المحرك اللعين.

أشعل الصياد سيجارة وتكلم:

- قُل تبًا لذلك المُهرب اللعين، أصدقت حقًا أن المحرك تعطل من تلقاء نفسه؟

- ماذا تقصد؟

- إليك الأمر، الحكومة الإيطالية تقع تحت ضغط الاتحاد الأوروبي فقط وهو ما يجبرهم على استقبال المهاجرين، أما الشعب فرافض للأمر، لذلك تدفع الحكومة للمهربين ليوقفوا الهجرة، والمُهرب يريد الكسب من الطرفين فماذا يفعل؟ يكمل عمليات التهريب ويخرج المهاجرين في عرض البحر ويتعطل المحرك في منتصف الرحلة ليموتوا، وحين ينتشر الخبر يقع اللوم على البحر وأمواجه، ونعم يترك القليل فقط، القليل من القوارب تصل إلى إيطاليا ليبقى دليلًا على نجاح رحلاته! التجارة بالبشر أمر كارثي وبشع.

- يا إلهي.

- الآن دعوني أعُدْ بكم إلى الشاطئ الآن.

جادله الجميع بشأن قراره الغريب فإعادتهم تعني موتهم:

- لا تقلقوا سأسلمكم لغرفة مكافحة الهجرة لحمايتكم.

توقف الجدال فور أن أطلق الصياد رصاصة في الهواء معلنًا انتهاء النقاش معه، يوشوش طارق أحد الشُبان الجزائريين:

- لدي الحل.

- وما هو؟

أبلغ طارق الشاب ما بعقله ليبلغ هو بدوره صديقه، مضت دقائق وهم جالسون خارج غرفة القبطان الذي لم يحرك المسدس من يده، شجار بالأيادي بين الجزائريين، شجار هز المركب الصغير، تقدم الصياد نحوهم بسلاحه ليوقفهم عن القتال ومن خلفه بهدوء تسلل طارق منقضًا على يد الصياد لينتزع السلاح منه ثم يركله عند رجيله ليسقطه أرضًا.

ضاحكًا قال:

- معك ما يكفي من الوقود ليوصلنا إلى أول ناقلة مهاجرين وتعود إلى ليبيا سالمًا، سامحنا على هذه الفعلة فنحن لن نعود.

وفعلًا مرت الساعات وغابت الشمس، غادروا المياه الإقليمية لتقابلهم سفينة ضخمة مُخصصة للإنقاذ، عبر اللاسلكي تواصل معهم طارق طالبًا الإنقاذ،

ألقت السفينة سلمًا ليصعد منه الرفاق، ركب الشابان ولحقتهما ريان لينظر طارق نحو الصياد قائلًا:

- حقيقة لا أستطيع ترك المسدس لك فربما تقتلني بمجرد إمساكك به، وأيضًا لا أريدك أن تتورط بأي مشاكل، عد إلى ليبيا واستمتع بحياتك البائسة يا عديم الرحمة.

رمى طارق المسدس بالماء وصعد السُلم، ليستقبلهم طاقم إنقاذ

مُرسل من الصليب الأحمر.

على متن السفينة توجد العائلات التي خرجت بالمركب الآخر، بعض من العائلات أبناؤها في قارب الشباب الذي غرق فأبلغهم طارق بما حدث لتتزلزل السفينة من البُكاء، يوم كارثي على العائلات الآملة في مستقبل مشُرق بأوروبا؟!

تحدثت قائدة فرق الإنقاذ بالإنجليزية:

- أنتم أقدمتم على مجازفة، كلكم متوقع أن نهايتها ربما الموت، أبناؤكم الذين أخذتهم المياه أرواحهم عند الرب الآن في مكان أفضل، والبكاء لن يفيد، سنضعكم بجزيرة صقلية حيث ستخضعون لبعض الفحوصات الطبية وتتم مراجعة أسباب هجرتكم ليتم نقلكم إلى أماكن الإيواء المختصة للمهاجرين في أرجاء إيطاليا.

جلس طارق على أرضية السفينة وعلى كتفه نامت ريان:

- أنا مرهقة جدًا.

- وأنا كذلك يا عزيزتي، رغم كُل الكوارث التي مررنا بها إلا أنه ولله الحمد نجونا، الآن نحن في بر الأمان وسنستقر في إيطاليا لنبدأ حياتنا، أتعلمين اشتقتُ إلى سهراتنا بذلك المقهى، وثرثرتنا عن الكُتب بالمكتبة.

ضاحكة ردت:

- وأنا كذلك، هذه الرحلة أظهرت جانبًا منك لم أتوقعه وهو المتهور، كنتُ أظنك حكيمًا في تصرفاتك طوال الوقت.

- أجبرت أن أكون هكذا حتى نصل إلى هنا.

أخرج طارق بعض الطعام من الحقيبة ليتناوله الثنائي، وهما يتناولان نطق طارق:

- صحيح، لدينا مشكلة حين نصل، هاتفي أخذ مني وهاتفك ليس معك، فيديو المنزل المُحترق سيكون دليل قويًّا لحصولنا على اللجوء.

- ومن قال لك إنني نسيتُ هاتفي؟

- ماذا تقصدين؟ لقد فتشوا الحقيبة وفتشوك ولم يجدوا الهاتف.

- حين طلبت مني أن أخيط المال داخل ملابسي فكرتُ بأنه ربما حتى هاتفي قد يكون عرضة للسرقة، لذلك...

سكتت ريان لتنتزع حذاءها وتشده من الجانب لتخرج هاتفها منه، أكملت:

- قمتُ بوضع الهاتف داخل حذائي تحسبًا لمثل هذه المواقف.

الفرحة سيطرت على طارق فأمسك برأسها وقبلها على جبينها:

- أنتِ ذكية، انتظري لماذا لم تخبريني؟

- أستصدقني إن قُلت لك إنني نسيت؟

امرأة طاعنة بالقرب منهما جالسة وترمي بناظريها إلى الطعام، أبلغت ريان طارق بالأمر وطلبت منه أن يعطيها بعض الطعام، قال طارق:

- يا حبيبي، من عجوز لأخرى.

وقف طارق رفقة ريان ليجلسا إلى جانب العجوز ويعطيانها بعض الطعام، هي من سوريا أتت برفقة ابنها، استفسر طارق:

- وأين ابنك يا أمي؟ لماذا هو ليس معك؟

- يدور بالمركب، يحاول الحصول على طعام أعتقد.

أتى ابنها عبد الرحمن ليسعد أن أمه السيدة فوزية تحصلت على رفاق وعلى طعام أيضًا.

مر الوقت وصلوا إلى جزيرة صقلية، توجه الجميع إلى السُلم للنزول، ما إن نزلوا حتى استقبلتهم منظمات الإغاثة لمساعدتهم وتقديم الطعام لهم ونقلهم إلى مركز الإيواء.

المفاجآة أن مركز الإيواء مُقسم إلى قسمين منفصلين، قسم للرجال وقسم للنساء.

بعد أن انتهى الفحص الطبي وكُل الإجراءات اللازمة، استعد الجميع للنقل إلى مراكز الإيواء في حافلات مخصصة للرجال والنساء، قال طارق:

- أيام معدودة وسنكون معًا، لا تخافي.

ردت ريان:

- كُلما ظننتُ أننا ارتحنا تقابلنا مشكلة جديدة.

- ليست مشكلة، هذا إجراء قانوني، سآخذ هاتفك معي فربما

يطلبونه عند المقابلة، سأنهيها بنفسي ثم نخرج معًا إلى إيطاليا، هذه آخر رحلة.

وضع يده على خدها ليطمئنها قبل أن يصيح آخر شخص صعد الحافلة

- لن ننتظرك كثيرًا يا روميو.

أعطى طارق حقيبة الطعام لـ ريان رغم رفضها في البداية.

افترق الاثنان بعد رحلة مليئة بالمخاطر، مركز الإيواء يعج بالمهاجرين بعضهم لا أوراق معهم، وبعضهم استقروا بجزيرة صقلية وأخرون وصلوا حديثًا، المركز مكتظ، بعد أن توقفت الحافلات عند مركز الإيواء، انطلق الجميع بحثًا عن غرف أو أي مكان للنوم به، طارق دار بالمكان دون أي فائدة، لم يجد غرفة أو حتى حجرة صغيرة، الممرات نفسها ممتلئة، الساحة هي المكان الوحيد المُتاح.

سأل طارق أحد العُمال في المكان فأجابه بالإيطالي، ذهب لآخر والرد كان بالإيطالي، و طارق طبعًا لم يفهم حرفًا، حتى انتبه أحد له وهو يلف المكان فناداه، توجه طارق إليه وكان سوري الجنسية من حديثه:

- أراك تدور بالمكان؟

- لم أجد غرفة لأنام بها ولا أحد يُساعد هنا.

- لا تنتظر المساعدة، نم بأي مكان.

- كيف أنام بأي مكان؟! ليست معي حتى وسادة أو لحاف.

- هذا المركز سيء جدًا، ولن تتلقى به أي خدمات، غدًا توجه إلى مركز منظمات الإغاثة واعرض عليهم حالتك ليتم نقلك إلى إيطاليا في أسرع وقت.

- أعلم هذا ما سأفعله لكن كم سيأخذ من وقت؟

- حسب قدرتك في الإقناع، ربما بعد يوم أو اثنين، وربما بعد شهر أو اثنين.

- وأنت لماذا لم تُغادر؟

- لا أوراق ثبوتية معي للأسف، الحمد لله أنني هنا.

- آسف لسؤالي.

التحف طارق الأرض لينام فلا خيار آخر، النُعاس سيطر عليه، فوضع القلق التوتر والخوف جانبًا وغط في نوم عميق.

***

ريان بفضل حقيبة الطعام كونت صدقات مع مجموعة نساء، لطفها الشديد واقتسامها للطعام معهن أعطاها غرفة لترتاح بها، الغرفة لم تنم بها وحدها فهي لم تنس العجوز.

***

جسده يحتك بالأرض، تألم طارق ففتح عينيه ليرى اثنين شديدي السُمر يجرانه إلى أحد الأزقة المظلمة منهالين عليه

بالضرب، يغلق أحدهما فم طارق حتى يمنعه من الصراخ، يبصق دمًا من قوة الركلات على معدته.

يتهجم عبدالرحمن الشاب السوري على الأفارقة ليبعدهما عن طارق فيركضان هربًا، جلس طارق في تعجب، أخذ طارق نفسًا طويلا ومسح فمه بيده لينثر الدماء على الأرض.

هبط عبدالرحمن إلى جانبه متكلمًا:

- أعرف السبب.

يسأل والكلام يخرج بصعوبة:

- أي سبب؟

- سبب ضربهما لك.

- وما هو؟ أخبرني؟!

- هذان الرجلان كانا معي في قارب العائلات مع عائلاتهم إلا إخوتهم فقد كانوا معك بالقارب الذي غرق، منذ قليل كنتُ نائمًا إلى جانبهم، ولحسن الحظ أنني أفهم اللغة الإنجليزية وسمعتهما يتحدثان أنه أنت ومن معك سبب موت أخوتهم.

- ولماذا؟

- لأنك ليبي الجنسية، وقعت مثل هذه الحوادث من قبل، تغرق قوارب هجرة إلا من هم ليبيو الجنسية ينجون وكأنهم يعلمون بأن القوارب قد تغرق.

- وكيف عرفوا أني ليبي الجنسية؟

- كلنا رأيناك حين تحدثت مع المُهرب في صبراتة قبل صعودك للمركب، حتى الذي لا يفهم يعرف أن لهجتك مقاربة للهجة المُهرب.

- وكذلك الجزائريون لهجتهم مقاربة.

- نعم هُم أيضًا قد يكونون عرضة للهجوم، خُذ النصيحة مني لا تُخبر أحدًا أنك ليبي، المُهاجر يحقد على كُل حامل جنسية ليبية بسبب المعاملة التي تلقوها في صبراتة من المهربين أبناء بلدك، لذلك إن عرفوا أنك ليبي سيصبون غضبهم عليك.

صفع طارق رأسه:

- تبًا إن كان هذا تفكيرهم، فزوجتي في خطر.

توجه طارق نحو قسم النساء المعزول عن قسمهم بسياج ضخم، يلقي ناظريه لعله يرى زوجته لكن دون جدوى، الكُل نيام ولا حركة، القلق أصاب طارق بشدة وريان فقط من تشغل تفكيره.

***

على الجانب الآخر، حدثت لـ ريان بعض المُضايقات لم تعرف السبب ولم تهتم، أخرجت من عُمق ثيابها ٥٠ يورو لتستأجر فتاة ضخمة تحميها، أبلغتها ريان أنه ستعطيها كُل يوم ٥٠ يورو في مقابل حمايتها، كُل من فكرت في إيذاء ريان سحبت الفكرة من رأسها.

***

أتى الصباح ليستيقظ طارق على صوت ريان، فرك عينيه

- أأنا أحلم؟

- لا يا غبي، لماذا أنت نائم إلى جوار السياج؟

النُعاس غلب طارق بالليل وهو ينتظر قدوم زوجته فسقط على الأرض مغشيًا عليه، تكلم:

- ألم يحصل أي أمر غريب معك؟

قاطعت ريان السؤال بسؤال:

- ما هذه الكدمة أسفل عينك اليُمنى؟

- إنها بسيطة، مجرد شجار، أخبريني أحصل أي أمر غريب؟

- شجار؟ مع من؟!

- المُهاجرين، يظنون أننا على دراية بأن قاربنا قد يغرق، لذلك نجونا لذلك يريدون الانتقام.

- الانتقام لمن؟

- لإخوانهم، كان معنا أخوان لبعض المُهاجرين في قارب العائلات.

- لهذا بعض السيدات حاولن مضايقتي!

- ماذا حصل؟ أضايقوك؟

- لا تشغل بالك يا عزيزي، كونتُ صداقات واستأجرتُ فتاة ضخمة تخيف الجميع.

- يا حبيبي وأنا الذي كُنت مشغولاً عليك، كيف دفعتِ لها؟

- بالمال الذي معي، خمسين يورو لليوم.

- خمسين يورو، على هذا الحال ستنفد أموالنا سريعًا.

- ألم تقل إنه يومان ونخرج؟

- نعم، معك حق، سأذهب الآن لأتناول الإفطار وبعدها أتوجه إلى مركز منظمات الإغاثة لأشرح حالتنا لعله يتم نقلنا في أقرب فرصة، انتبهي لنفسك.

- انتظر سأعطيك بعض المال.

- لا لا أريد، أبقه معك لا نريد إنفاقه هنا لدينا رحلة طويلة بإيطاليا.

- وماذا عن الذي تهجموا عليك؟

- سأتولى أمرهم، لا تخافي.

- أتعلم شيئًا، في بعض الأحيان أفكر أنني دمرتُ حياتك، ولربما لو تركتك مع زوجة أبيك أفضل لكن بعد أن رأيت كيف تغيرت بهذا الشكل للأفضل وتخلصت من الخوف والتردد انسى تلك الأفكار وأعلم أن هجرتنا قرار حكيم.

- عزيزتي لا تلومي نفسك، تلك الليلة وأنا في الحديقة نائم

حسمتُ كل شيء، حتى دونك كُنت سأهاجر، جهزت نفسي لتغيير حياتي ودحر الخوف والتردد، هذا هو طارق الجديد.

ودع زوجته وانطلق ليغتسل ويتناول إفطاره، فور انتهائه توجه إلى مركز مؤسسات الإغاثة ليجلس مع أحد المسؤولين ويقدم الأوراق والفيديو، شرح الوضع كاملًا لهم ليكسب استعطافهم، ابتسم الحظ لطارق فقرروا أن يتم نقله ليلة ذلك اليوم رفقة زوجته إلى بلدة ملفي بالجنوب الإيطالي.

لم يخبر طارق ريان، أراد أن تعلم بالأمر في وقته، جلس بساحة المركز يراقب والسعادة تغمره، مر شريط حياته أمامه ليتذكر والده والطاغية زوجة أبيه، محاضراته الجامعية بين الفشل والنجاح، يتذكر أيام بالمكتبة وسهرات الليل على الإنترنت المُظلم بين المواقع المُرعبة بل حتى لقائه الأول بريان وثرثرتهم.

أتى الليل وطارق يحاول التخفي خشية الهجوم عليه مجددًا، حان الموعد ليأتي أحد الحُراس مناديًا على طارق وكذلك عبدالرحمن معه بالرحلة.

ريان طارت من الفرحة بعد أن تم إبلاغها أن رحلتها قد حانت، ودعت صديقاتها وتوجهت نحو الفتاة الضخمة أخرجت لها مئة يورو وقالت:

- يا أختاه اعتنِ بنفسك، هذه هدية بسيطة مني.

تقدمت الفتاة لاحتضان ريان فأبعدتها ريان متكلمة:

- ستحطمين عظامي.

أشاحت بوجهها بعد أن أحزنتها الإجابة فشدتها ريان من يدها والضحكة تعتلي وجهها:

- أمزح معك يا غبية، أتمنى لك هجرة إلى حيث تجدين راحتك.

أمسكت ريان بالعجوز السورية فوزية وخرجتا نحو الحافلات التي ستنقلهما إلى المركب الذي سيرسلهم إلى الجنوب الإيطالي، المركب نقل مئة شخص.

بعد رحلة ليست بطويلة وصل رفاقنا إلى ملفي بالجنوب الإيطالي، أشرقت الشمس والكسل أصابهم بعد نوم عميق بالمركب.

وقف شخص أمام المُهاجرين ليخاطبهم باللغة الإنجليزية:

- أعلم أنكم عانيتم الكثير حتى وصلتم إلى هُنا، سترتاحون قريبًا، حاليًا جهزنا مجموعة منازل لكم، كُل منزل سيحتوي على أربع عائلات، لكل أربع عائلات سيكون هناك مرافق مسؤول عن إعطائكم المال الطعام والمستلزمات الأساسية، الآن جهزوا أنفسكم.

نُقل طارق وريان رفقة العائلة السورية وعائلتين من باكستان إلى منزلهم الجديد.

منزل صغير من طابقين، الغُرف بالطابق السُفلي أخذها طارق وريان والعائلة السورية.

قال المسؤول عنهم بعد دخولهم للمنزل:

- أهلًا بكم، أنا جوزيف سأكون المُشرف هنا، سأخبركم كيف ستسير الأمور، كل أسبوع سأعطي كُل فرد منكم خمسة وثلاثين يورو، بالإضافة إلى لوازم البيت، سأتكفل بنقلكم إلى المحكمة لعرض حالاتكم من أجل الحصول على الإقامة، بعد أن تعرضوا حالاتكم ستنتظرون لمدة تسعة إلى عشرة أشهر حتى تتم الإجابة إما بالقبول أو الرفض، في حالة الرفض يمكنكم تقديم طعن أو سيتم ترحيلكم لبلدانكم، وفي حالة القبول سيكون عليكم الانتظار سنة كاملة للحصول على الإقامة، حتى تحصلوا على الموافقة لا يمكنكم مغادرة هذا البيت لأكثر من سبع أيام.

قاطعه طارق:

- وإن غادرنا لأكثر؟

- سيتم رفع الدعم عنكم، هذا يعني أنه عليكم البحث عن سكن بأنفسكم ودفع الإيجار، بالإضافة أنه حين تقومون بالتقديم على الإقامة بعد الموافقة ستحتاجون إلى شهادة سكنية ونحن سنوفرها لكم في حال بقيتكم بهذا المنزل.

- ما هي الشهادة السكنية؟

- ما يُثبت أنه لديكم بيت مُلك بإيطاليا، صحيح أيضًا لا يمكنكم العمل حتى حصولكم على الموافقة على الإقامة بعد الأشهر التسع إلى ذلك الحين ممنوع أن تعملوا، وإن اكتشفنا أن أحدهم عمل في الأسود سيرفع الدعم عنه.

- العمل في الأسود؟ أيمكنك أن تشرح أكثر؟

- أنت تسأل كثيرًا، حين يتقدم شخص لوظيفة بمقهى أو مطعم أو أي كان يُقدم أوراقه لرب العمل الذي بدوره يدفع ضريبة على الموظف للدولة، لذلك يبحث أصحاب المقاهي والمطاعم دومًا عن المهاجرين، لا تسألني لماذا سأجيبك، أولًا لأنه يدفع للمهاجر أجرًا أقل من الموظف العادي، وثانيًا لأن العمل يتم بدون عقد، وبهذا لا يدفع للدولة أي فلس، الموظف العادي يُطالب رب العمل بعقد حتى يكون العمل قانونيًا عكس المُهاجر.

- فهمتُ الآن.

- أعتقد أنني أخبرتكم بكل التفاصيل التي تُهمكم، فلتحددوا اليوم المناسب للذهاب إلى المحكمة لتقديم أوراقكم بعدها كما قُلت لكم عليكم انتظار تسعة أشهر للموافقة أو الرفض.

ذهب جوزيف ليترك العديد من التساؤلات تجوب عقولهم خصوصًا كيف لهم أن يصبروا لمدة تسعة أشهر دون عمل ويعيشوا على مبلغ صغير.

تكلم عبدالرحمن:

- هذه هي إيطاليا، المال يأخذون معظمه ويعطوننا الفتات.

حادثه طارق:

- سنعاني في هذه الأشهر التسع !

- تحدث عن نفسك يا صديقي، أنا سأبحث عن عمل.

- ولكن سمعت ما قال.

- لا يهمني، الكُل يعمل في الأسود، الأمر ليس جديدًا هو يحاول إخافتنا فقط.

بعد انتهاء النقاش، دخل طارق إلى غرفته مع ريان، ألقى ناظريه نحو السرير متحدثًا:

- السرير جميل.

- نعم يا عزيزي.

- سننام معًا، لأول مرة يا شريكة حياتي.

- ولكن يا طارق لدينا أمور كثيرة لنُفكر بـ...

وضع أصبعه على فمه ليُسكتها، بصوت منخفض:

- ألا يكفي تخطيط وتفكير؟ ألا نستحق ولو يوم راحة؟ ننسى كُل همومنا ومشاكلنا، دعينا ننسى هذا العالم ولو ليوم، ولو لليلة، بنظري هذه الليلة أول ليلة في حياتنا الزوجية، أطفئي النور.

مرت الأيام دون أن يقوم طارق وريان بأي شيء، لم يغادرا الغُرفة إلا للأمور الطارئة.

تكلمت ريان:

- أعتقدُ أننا هكذا عوضنا الجفاف العاطفي الذي أصابنا المدة الفائتة.

ضحك طارق:

- تحدثي عن نفسك.

- على أية حال، علينا أن نذهب للمحكمة لتقديم طلب اللجوء.

- معكِ حق، رقم هاتف جوزيف معك صحيح؟

- نعم.

- اتصلي به ليأتي ويأخذنا للمحكمة.

اتصلت ريان طالبة حضور جوزيف، فور وصوله أبلغه الثنائي أنهما يريدان الذهاب للمحكمة للتقديم على اللجوء.

فرك جوزيف رأسه قليلًا ولم يجبهما، سأل طارق:

- أهناك خطبٌ ما؟

ابتسم مجيبًا:

- نعم، نسيتُ أن أخبركم بأمر واحد، المحكمة تؤمن لكم محامي ليهتم بملفكم، ولكن بسبب طلبات اللجوء الكثيرة لدينا نقص في المحامين لذلك أخشى أنه عليكم أن تنتظروا بضعة أشهر حتى تستطيعوا التقديم أو ....

تردد جوزيف في إكمال كلامه فاستوضح طارق:

- أو ماذا؟

- أو يمكنكم توظيف محامي خاص يتكفل بقضيتكم.

- وهل يكلف الأمر كثيرًا؟

- في الواقع نعم، أقل قيمة ألف يورو.

- وأين نجد هؤلاء المحامين؟

- ستجدُ مكاتبهم بجوار المحكمة.

ذهب جوزيف، تناقش طارق مع زوجته حول تعيين محام خاص عوضًا عن انتظار محامي من الدولة الإيطالية، الأمر الذي قد يأخذ أشهرًا طويلة.

- حتى نحصل على الإقامة الدائمة نحتاج إلى سنتين من وقت القديم عليها، والآن علينا أن ننتظر أشهرًا حتى نستطيع التقديم، أي ربما سنحصل عليها بعد ثلاثة أعوام من الآن، دعينا نعين محاميًا ليتولى ملفنا، وسنحاول جمع المال لتوفير حاجياتنا.

خرج طارق وحده باحثًا عن أول مُحام، عثر على المحامي المناسب، أخذ منه ألف ومئتي يورو، وأصبح المتبقي مع طارق فقط ستمئة وخمسين يورو.

بعد أيام تلقوا اتصالًا من المُحامي، أجاب طارق:

- أهلًا حضرة المحامي.

- سيد طارق اتصلتُ لأبشرك، جلستكما بعد أربعة أيام على الساعة العاشرة صباحًا.

غمر الفرح طارق:

- أنا جاهز.

- هل أوراقكم مترجمة للغة الإيطالية؟ أوراق الثبوتية، عقد

السكن المُحترق، عقد الزواج، شهاداتكم الجامعية؟

- لأكون صريحًا لا، أليس لديهم مترجم؟

- هذه محكمة وليست مدرسة، يريدون الأوراق باللغة الإيطالية، سأرسل لك عنوان مترجم عقود، أخبره أنك من طرفي وفقط أعطه خمسين يورو وسيقوم بترجمة كُل أوراقك في ظرف يوم واحد، اذهب له اليوم فلا وقت لدينا.

- شكرًا يا حضرة المحامي.

- تذكر الساعة العاشرة صباحًا إن تخلفت عن الموعد فستضطر إلى دفع المزيد.

أغلق طارق الخط وخرج إلى العنوان الذي أرسله له جوزيف، مُقابل خمسين يورو، ترجموا كل أوراقهم إلى اللغة الإيطالية، جهزوا الفيديو واستعدوا لليلة ما قبل الموعد، والخوف واضح على ريان، سأل طارق باستغراب:

- ما الخطب؟

- أنا خائفة.

- من ماذا؟

- أخشى أن ينزلق لساني وأقول الحق، لستُ معتادة على الكذب، نحن سنكذب أمام محكمة الدولة الإيطالية، الأمر مهول.

- العديد دخلوا وكذبوا، نحن لن نضر أحدًا، نحن نريد الإقامة فقط.

- لا أعلم حقًا، أنا فقط مرعوبه.

- اسمعيني، هذه كذبة بيضاء، نعم هي كذبة لكن نحنُ لم نضر ولن نضر أحدًا.

- أخشى أن نعتاد على الكذب.

- ريان بعد كُل ما حصل تريدين الآن أن تفسدي خطتنا؟! بعد كُل ما ممرنا به، أعدك بأمر.

- ما هو؟

- فلنتجاوز المحكمة ثم سأوافق على كُل شروطك ولن أخضعك لأي كذبة أو تصرف أنتِ لا تريدينه.

أخذت ريان نفسًا:

- في المرات القادمة ستفعل ما أقوله أنا.

- أعدك.

اقتنعت ريان، وضعت ريان رأسها على الوسادة بينما أخذ طارق هاتفها ليجهز المنبه الساعة السابعة صباحًا، واستلقى على الأرض دون لحاف أو وسادة.

سألته ريان متعجبة:

- لماذا تنام على الأرض؟

- حتى لا أرتاح في نومي وأستيقظ باكرًا، إن فاتتنا الجلسة غدًا

فسيتوجب علينا الدفعُ مجددًا.

- لا تقلق لن تفوتنا.

- أنا سأخذ احتياطاتي وأنام هكذا.

- كما تشاء.

لم يرتح طارق في نومه ليستيقظ فجرًا ويجلس والارتباك مسيطر عليه، تيقت ساعات على جلسته، وذهب الوقت ليجد طارق نفسه في قاعة المحكمة وإلى جانبه ريان والمحامي، كُل الأوراق معه والفيديو مع المحامي على قُرص.

يقول طارق ويترجم المحامي كلامه إلى القاضي ومعاونيه.

- حضرة القاضي أنا المدعو طارق الدرسي من بنغازي ليبيا زوج ريان البرناوي، قصتنا بدأت حين أردتُ الزواج منها، أنا يا سيدي والدتي متوفية وعشتُ مع زوجة أبي المُتسلطة التي رفضت بشكل قاطع أن أتزوج ريان بحُكم اختلاف لون البشرة حيثُ لدينا بعض العائلات في ليبيا لا تزوج من هم يختلفون في لون البشرة كنوع من العنصرية، ويمكنك التأكد من الأمر، تزوجتُ ريان رغمًا عن زوجة أبي، في المُقابل طردتني من المنزل وسلبتني كُل ما أملك، استقررتُ مع ريان بمنزلها القابع في منطقة الصابري بعد الزواج مباشرة سقط صاروخ عشوائي على منزلنا ليحترق بحكم أن الحرب في بنغازي لم تنته بعد كما تعلمون أو لا تعلمون؟ قررنا بعدها جمع آخر ما تبقى معنا من مال والفرار خارج ليبيا طالبين اللجوء، الفيديو للمنزل معنا على هذا القرص وعقد الزواج وعقد المنزل موجودان، نتمنى من سيادتكم مراجعة

الأمر ومساعدتنا فنحن ضيوفكم.

بعد أن أنهى طارق حديثه وترجم المُحامي ما قال، أشار القاضي بيده نحو ريان لترتبك الفتاة ويكون الخوف باديًا عليها، خاطبها بالإيطالية ليترجم المُحامي:

- حضرة القاضي يسألك، هل هذه هي القصة كاملة؟

نبضات قلبها تسارعت، أتُكمل مسرحية طارق أم تدمر كُل شيء، الوقت يضيع وتوترها يحُطم ما بناه طارق، في النهاية أجابت:

- أعتقد، أعتقد، في الواقع ربما الأمر ليس كما قاله زوجي بالتحديد.

ترجم المُحامي.

- نعم حضرة القاضي، القصة كاملة دون أن ينقص حرف كما قالها زوجي.

طارق علم من البداية أن ريان قد تُفشل خطته، لذلك حين علم أن المُحامي هو من سيقول بالنيابة عنهما أبلغه أنه في حال حكت ما ينافي كلام طارق يترجمه بطريقة غير صحيحة والمُحامي ساعده في مقابل أن يعطيه ثلاثمئة يورو ليصبح المجموع ألف وخمسمائة يورو للمحامي والمتبقي لهم فقط ثلاثمئة يورو، إن كُشف أمر اللعبة التي لعبها طارق والمحامي سيسجن الاثنان لمدة طويلة جدًا خصوصًا المحامي لأن المحكمة تثق به.

بعد أن خرجوا من المحكمة وقدموا قضيتهم، كان عليهم انتظار

تسع أو عشر أشهر للحصول على إجابة لها، أبلغ طارق ريان أن المحامي لم يترجم ما قالت بل قال من عنده وخدع المحكمة مقابل ثلاثمئة يورو، غضبت ريان:

- تبًا! الآن أشعرُ أنني مغفلة، ارتحت الآن يا طارق؟

ريان توبخ طارق دون توقف حتى أسكتها:

- ريان أنا لم آتي هنا لأسرق أو أخرب أو أكون إرهابيًا، جئتُ هنا لأكسب لقمة عيشي بالحلال بعد أن ضاقت بي الحياة في ليبيا، عاهدتك بأن هذه الكذبة ستكون الأخيرة، أنا لم أؤذي أحدًا، سيأتي اليوم الذي أخبر فيه الحكومة الإيطالية بكذبتي هذه.

- ستخبرهم؟

- والله العظيم سأخبرهم، لكن دعيني أستقر في إيطاليا أولًا، أرجوك يا ريان لا تكوني أنتِ أيضًا عليَّ، ثقي بي هذه المرة وكُل شيء سيحل وسأكفر عن كُل ذنب اقترفته.

- رغم أنك استغفلتني بطريقة حقيرة جدًا، لكن حسنًا سأنتظر وأرى وكما أبلغتك سلفًا لن أوافق على أي شيء لا يعجبني، أساسًا لن تفعل شيئًا لن يعجبني.

- أمرك غريب يا ريان، لماذا أصبحتِ مترددة رغم أنكِ وافقتِ على كُل ما فعلت وساعدتني بتصوير الفيديو؟!

- لا أعلم يا طارق، الجزء الصعب اجتزناه، ولا أعتقد أن الحكومة الإيطالية سترفض لجوءنا إن قدمناه دون الحاجة إلى الكذب.

- أنـا أعطيتـك وعـدًا، سـيأتي الـيوم الـذي تعـرف بـه الحكومـة الإيطالية كُل شيء.

-تبقى معنا فقط ثلاثمئة يورو، وأسبوعيًا كُل منا سيحصل على خمسة وثلاثين يورو، المبلغ قليل لتوفير كُل احتياجاتنا نحتاج إلى حل وحل جيد.

- دعينا نعد للمنزل ونفكر جيدًا في حل.

نظرت ريان بتخوف نحو طارق فابتسم مجيبًا على نظراتها:

- حل برضاك يا جميلتي.

يمر يوم ويأتي آخر، المالُ حقًا لا يكفي لسد كُل احتياجاتهم، قرر طارق أن يطلب من جوزيف أن يؤمن له عملًا وندم على فعلته بعد رد جوزيف، بعد أن علم جوزيف أن ريان طبيبة تخدير، قال:

- أتعلمان أعتقد أن لدي للأنسة ريان عملا مناسبا.

سألت ريان بفرح:

- حقًا وما هو؟

- أن تكوني ضمن طاقم التخدير بمستشفى البلدة، ستتقاضين ٧٥ يورو أسبوعيًا بالإضافة إلى الـ ٣٥ للدعم.

قفزت ريان من الفرحة، لكن لـ طارق رأيًا آخر؛ فقد رفض وبشدة لأنه يعرف أن العمل تحت رحمة منظمات الإغاثة يعني الانصياع لأوامرهم وجعلها تفعل ما يريدون، دار نقاش طويل فتحدثت ريان:

- ولكنك قُلت إنك ستنفذُ ما أطلب ! دعنا ولو لمرة نُجرب أمرًا أفعله أنا.

- لا لن أسمح لك، سأجدُ أنا حلًا.

- متى؟ حتى نُفلس نهائيًا؟

- في هذه الأيام.

- وإن لم تجد؟

- حينها افعلي ما يحلو لك.

أبلغت ريان جوزيف أن يمهلها بعض الوقت لتفكر ولتعطي فُرصة لـ طارق أن يجد فكرة.

ليلًا وقبل النوم، طارق بصوت عالٍ:

- وجدتها.

تعجبت ريان فأكمل طارق:

- مُصعب نسيتُ أمره نهائيًا، هو مُسقر في إيطاليا، أعطني هاتفك لقد أرسل لي رقم هاتفه على الفيسبوك سأتصل به.

أخذ هاتف ريان ليفتح حسابه الشخصي ويُسجل منه رقم هاتف مُصعب ويتصل به.

أجاب مُصعب ليعرف طارق بنفسه.

بعد حديث بين الاثنين اتفقا على اللقاء، ظُهر فى اليوم نفسه

بحديقة تتوسط بلدة ملفي.

بعد أن أنهى طارق المكالمة نظر مبتسمًا نحو زوجته قائلًا:

- مُصعب أبلغني أنه سيحل لي مشكلتي، قُلت لك إنني سأجد فكرة عوضًا عن عملك بالمُستشفى.

- لا أعلم لماذا غيرتك الغبية، وكأن هناك فرقًا بين العمل في مستشفى إيطالي أو ليبي.

- الفروق كثيرة خصوصًا عملك تحت رحمة المنظمات، دعيني أنام الآن فالنُعاس أصابني.

ظُهر اليوم التالي جهز طارق نفسه للقاء صديقه القديم، جلس الاثنان، بعد التحية وبعد أن أخبر طارق مُصعبًا أنه تزوج على أحد كراسي الحديقة ليبدأ مُصعب:

- إذًا قُلتَ لي أنك تريد حلًا لمشكلة المال؟

- نعم.

ضحك مُصعب ليرد:

- لا يوجد حل إلا أن تعمل.

- ولكن إن عملت وكُشف أمري فسيسحب الدعم عني.

- الدعم تقصد الـ ٣٥ يورو أسبوعيًا هذا أقل بكثير من مكسبي اليومي يا رجل.

- مكسبك اليومي؟

- نعم أنا غير مدعوم من منظمات حقوق الإنسان، حتى أوراقي للمحكمة قدمتها بنفسي.

- انتظر لحظة ولكن كيف؟ أخبرني المسؤول بالمنظمة، أنك تحتاج ضمن الأرواق ورقة إثبات أن لديك سكنًا في إيطاليا.

- لديَّ واحدة.

- تبًا يا رجل، ما هو العمل الذي وفر لك كُل هذا في وقت قصير؟

- العملُ في السوق السوداء، ما رأيك أتنضم لنا؟

- لا أصدق أن العمل في الأسود يعطيك الكثير؟

- أكثر مما تتخيل.

- لالا لا أستطيع، زوجتي لن توافق، ألا يوجد حل آخر؟ حل قانوني؟!

- للأسف لا يوجد، إن أردت أن تكون مطيعًا للقانون الدولي فلن تتقدم خطوة.

- سأفكر وأتصل بك إذًا.

- وأنا بانتظارك يا صديق

عاد طارق ليحادث زوجته، ولكن أبت أن توافق، تكلم:

- أن أعمل في مطعم أو مقهى وأحصل على مبلغ جيد، ليس بخطأ.

- بلا خطأ، سمعت ما قاله السيد جوزيف، ممنوع العمل في الأسود، تحصَّلنا على عمل قانوني وبمبلغ جيد لماذا نضيعه؟ فقط من أجل غيرتك سيد طارق؟ أنا أطعتك في كُل ما قُلت وانتظرتُ لتأتي بحل منطقي، طارق حبيبي عزيزي لا أعرف ما الذي يدور في عقلك ولكن حتى إن عشنا في ليبيا سأعمل بمستشفى مليئ بالرجال دون أن تعلم ما الذي يحدث معي داخل المستشفى، ثق بزوجتك ولا تخف ! أرجوك كُن طارق الحكيم الذي عرفته في بداية علاقتنا حاول أن توازن بين طارق المتهور والحكيم.

- أنا لستُ خائفًا منكِ يا عزيزتي.

- كذلك لا تخف منهم، أسيتركون الجمال الإيطالي وينظرون إليَّ؟ بربك.

- أنتِ المرادف للجمال.

- ان أردت أن تغازلني وافق، وسأعتبرها قصيدة كاملة من كلمات العشق.

رضي طارق بالواقع لتبدأ ريان العمل، تأخذها للعمل حافلة النقل حيث يكون بها دومًا زملاؤها شاب يدعى روكو والفتاة بيبا.

الغيرة تغلغلت داخل جسد طارق خصوصًا أنه يراقب ريان عند ذهابها وعودتها يوميًا ليراها تضحك وتمزح مع روكو، لكنه خرس، خرس عن الحديث؛ ففيه اتهام لزوجته، شعر بالعجز؛ فزوجته هي من توفر قوت يومهم وهو جالس دون أن يقوم بعمل حتى أتى اليوم الذي كُسر فيه، علم طارق أن الصبر لا ينفع، فما كان من حل إلا أن يأخذ هاتف ريان ليتصل بمُصعب

للقاء، ولم يخبرها بتلك المكالمة، وحين غادرت إلى عملها التقى طارق بمُصعب ليخبره باستعداده للعمل، سأل مُصعب:

- أنت تعرف أن العمل في السوق السوداء لا يوجد انسحاب منه صحيح؟

- ماذا تقصد؟ بعد أن أكوِّن مبلغًا جيدًا بالطبع سأتركه.

- أعلم بعد مدة طويلة لكن ليس مباشرة فهمت؟

- بالتأكيد لن أترك مباشرة لماذا أريد العمل إن كنتُ أريد الانسحاب؟

- لا أعلم لربما من الخوف من المخاطر بالعمل.

- لا أنا مستعد، اختراق القانون في بعض المرات ليس خطأ.

- أنت تعجبني يا صديقي.

- متى سأباشر العمل؟

- إن أردت، من الآن.

- نعم أنا جاهز.

اتصل مُصعب بأحد ليأخذهم بسيارته، قبل أن يصعدوا السيارة تم عصب عيني طارق حتى لا يعرف المكان.

وصلوا إلى مكان مليء بالأشجار، وقفوا أمام مقر سيارات مُعطلة تتخذ الحيوانات منها مأوى للمعيش، ترجل مُصعب ومعه طارق من السيارة فسأل طارق:

- ما هذا المكان؟

- أنت يا رفيقي في مكان عملنا، اتبعني.

تحرك الاثنان بين السيارات المعطلة حتى قابلهم مستودع تخفيه الأشجار والسيارات المُعطلة، أخضر اللون وصدئ، يرفع مُصعب الباب الكبير ويكشف النقاب عن العمل، يتوقف طارق أمامه لتتسع عيناه في ذهول مما رأى، عدد كبير من الناس يحملون صناديق ويقومون بترتيبها فسأل:

- أخبرني ما هو هذا العمل يا مُصعب؟

- تهريب المخدرات يا رجل.

تدلى فك طارق السفلي وصُعق مما سمع.

- أنت تمزح؟

- أمزح؟ أخبرتك أننا نعمل في السوق السوداء يا رجل، وأكدت لك ذلك، أنه لا يمكن لأي شخص يعمل بالسوق أن ينسحب.

- ظننتُ أن السوق السوداء تقصد بها العمل في الأسود بدون أوراق رسمية في مطعم أو مقهى.

ضحك مُصعب:

- آه، أنت لم تفرق بين المصطلحات (العمل في الأسود) تختلف عن (العمل في السوق السوداء)، (ورك إن بلاك) تختلف عن (ورك إن بلاك ماركت) ظننتك تعرف.

- أنا لا أستطيع العمل هنا.

- لا يا رجل، لا يُوجد انسحاب.

وقف طارق أمام المستودع وهو شارد إما أن يُكمل كطارق الجريء ولا يهتم للأخطاء، أو يبقى طارقًا الهادئ الذي عشقتهُ ريان، خاطب نفسه:

- هذه المرة ليست كذبة بيضاء، أنت الآن يا طارق ستتسبب في ضرر للناس وتُساعد على انتشار المُحرمات، يجب أن تتوقف عن هذا التهور يا طارق وتعود إلى رشدك، قد تندم يوم لا ينفع الندم فيه.

تقدم خطوة إلى الأمام ليعود بعدها خطوتين ويقول:

- لا أنا لن أعمل هُنا.

نهض مُصعب والغضب واضح عليه.

- ماذا تقُول يا أحمق؟ الأمر ليس بمزاجك، أنت وافقت على العمل هنا.

- والآن أسحب نفسي، ثم ألا تخافون من أن تلقي الشرطة القبض عليكم؟

- نحنُ بمأمن، رئيسي لديه علاقات واسعة في كل الجهات الحكومية وعناصر من الشرطة هم الذين يأمنون لنا الطرق، وما إلى ذلك.

- أيضا لا يهم أنا أسحب نفسي يا رجل.

أخذ مُصعب نفسًا وتكلم:

- تبًا، إذًا اتبعني.

- إلى أين؟

- إلى رئيسي إن وافق على انسحابك انسحب.

- أي انسحاب يا رجل؟ أنا لم أعمل هنا من الأساس

- قدومك إلى هُنا يعني أنك موظف معنا، الرئيس وحده من يوافق أو يرفض، اتبعني وسأحاول إقناعه.

رغم رفض طارق في البداية أن يقابل المُدير إلا أن الخيارات كانت معدومة، غرفة المدير موجودة داخل المستودع في الأعلى، صعد الاثنان على الدرج نحو الغرفة، نبضات طارق تسارعت ونظراته تتسارع في تفحص المكان ورؤية الناس الذي يعملون دون توقف.

اثنان واقفان أمام باب غرفة الرئيس، طلب مُصعب مقابلته فأخذ الجنود الموافقة من الرئيس بالسماح لـ مصعب وطارق بالدخول، قاما بتفتيشهما ثم أدخلوهما.

جالس بمكتبه سمين أقرع كثيف اللحية تعتلي وجهه ابتسامة بأسنان معظمها ذهبية، تميز وجهه علامة تشق خده الأيمن تدل على شجار قديم.

ألقى مُصعب التحية باللغة الإيطالية فرد الرئيس بترحاب شديد.

- يا مرحبا، أهذا موظفنا الجديد يا مُصعب؟

خفض مُصعب رأسه والخوف يسري في جسده وأجاب:

- لدي خبر سيء يا سيدي.

اختفت الابتسامة من وجه الرئيس الضحوك، نطق:

- هات ما عندك.

بلع مُصعب ريقه:

- صديقي لا يريد العمل هُنا.

عادت الابتسامة على وجه الرئيس وردَّ:

- ماذا تقول يا مُصعب؟ أنت تعرف أن عملنا لا يوجد به انسحاب.

- أخبرته بذلك، لكن سوء فهم حصل وهو كان يظن عملنا شيئًا آخر.

- حسنًا إذًا لا يمكنني الضغط على أحد للعمل عندي، لكن كما تعلم يا مُصعب أنا أكرم عُمالي دومًا، وقدوم هذا الشخص إلى هنا يعتبر جهدًا يستحق مكافأة عليه.

خفض رأسه ليفتح دُرج مكتبه، سأل طارق:

- ماذا قال لك؟

- وافق على طلبك، هو فقط يريد أن يعطيك شيئًا هكذا.

فهم طارق الأمر و قال في رعب:

- أظنني عرفتُ الشيء الذي يريد أن يعطيني إياه، شاهدت هذا في أحد الأفلام.

فات الأوان، أراد طارق الهروب لكن رصاص المسدس كان أسرع ليسكن بجسده ويسقط جثة.

وقف الرئيس من كرسيه ليتحرك نحو جثة طارق الملقاة على الأرض، تحسسه برجله ليتأكد أن روح طارق انتقلت لخالقها، قال:

- هذا مصير من ينسحب من عندي، مُصعب خذه وضعه بالشاحنة وارم جثته بعيدًا عن هنا.

مُصعب الذي لم تعد رجليه تحملاه وافق دون نقاش، أخذ يجر جثة طارق على الدرج والدماء تنز في المكان، الصدمة اعتلت وجوه العمال لكن ما باليد حيلة ولا يستطيعون حتى السؤال، توقفوا عن العمل لثواني، وعادوا إليه بنظرات مرعبة من حُراس الرئيس.

وضع مُصعب جثة طارق في ظهر الشاحنة وانطلق مبتعدا عن المستودع ومُراقبًا للطريق خوفًا من وجود الشرطة، بعد أن ابتعد من المقر توقف في مكان خالٍ ليجدها الفرصة المناسبة لرمي طارق، أمسك الجثة ليسحبها، لكن الوزن ثقل، وكأن طارق يرفض جره، تصلب مُصعب في مكانه فور أن سمح أنين طارق فصاح:

- أنت لم تمت بعد؟

يقاوم طارق للحياة؛ فهو لم يترك أهله، لم يعرض نفسه للقتل، لم يركب زورق الموت ليموت برصاصة.

مُصعب مشوش وفي موقف صعب إن ساعد طارق فمصيره الموت، لم يجد خيارًا إلا أن يسحب سكينًا ليكمل على طارق.

رفع سكينه ليمر بين عينيه شريط أيام عمله بليبيا ومعاملة طارق له، الود والأخوة التي تلقاها من طارق جعلته عاجزًا على أن يغرس سكينه، فلم يفعل، ما الحل وماذا يفعل، خاطب طارق:

- يا صديقي إن أنقذتك سأُقتل، لذلك أريد منك أن تتماسك، سأضعك في جهة مكشوفة، وهكذا يراك المارة، وبهذه الطريقة يا صديقي أريح ضميري وأضمن نجاتي، أنت تتفهم موقفي بالتأكيد.

غادر مُصعب ليترك طارق عند وادي يصارع الموت متمسكًا بالحياة، ولأن رحمة الله واسعة كُتب لـ طارق عمر جديد ليكمل رحلته، يلحظ المارة طارق مرميا فيتصلوا بالإسعاف لنجدته في أسرع وقت.

نُقل طارق إلى مستشفى ملفي، وضعوه على السرير المتحرك لينطلقوا به إلى داخل المستشفى بسرعة، فتح طارق عينيه ليرى الدنيا تدور من حوله وسأل نفسه:

- أسأنجو؟

حرك رأسه لينظر يمينًا ليرى ما جعله ينسى الرصاص المغروس في جسده، تجمد كل شيء ولم يبقَ أمامه إلا ذلك المشهد

المُرعب، المشهد الذي جعله يتمنى لو التهمته وحوش البحر ليلة الهجرة، جعله يتمنى لو أصاب رئيس العصابة بالرصاص قلبه، في ذلك الممر الطويل فتاة سمراء ذات شعر مهوش تُمازح صديقها قافزة على ظهره، ريان التي تصلبت على ظهر روكو فور رؤيتها لزوجها الملقى على السرير المتنقل، أتبكي على حال زوجها أم على موقفها المُحرج؟

فقد طارق وعيه بسبب الألم، الألم الذي لا دواء له سوى النسيان، أدخل طارق مباشرة إلى غرفة العمليات لنزع الرصاص وإيقاف النزيف، تم طلبت ريان لتساعد في عملية التخدير لكن انهيارها منعها من المشاركة، على الأرضي ملقاة أمام غرفة العمليات تبكي وبشدة، اقترب روكو منها ليساعدها على النهوض فابتعدت عنه بخوف وصاحت في وجهه بالعربية دون أن يفهم شيئًا:

- مزاحنا كان خطأ، خطأ، خطأ.

جلست وحدها تنتظر، رغم تخديره إلا أن صراخه أسمع الناس:

- يا خائنة، يا خائنة.

هذا كُل ما يقوله وهو تحت تأثير التخدير، فقط يا خائنة، وقعها ثقيل على ريان التي تسارعت نبضات قلبها كُلما سمعت الكلمة.

خرج الطبيب والابتسامة تعتلي وجهه مبشرًا أن طارق كُتب له عمر جديد والنزيف توقف، ريان ركضت نحو طارق النائم لتقترب منه والأجهزة موصولة بكافة أجزاء جسده، تحدثت ودموعها تنهمر:

- حبيبي أرجوك استيقظ، حبيبي استيقظ وأخبرني بما حصل، أعدك فور أن تستيقظ أنني سأعوضك عن كُل ما حدث، الطبيب عالجك من جروحك، والآن دوري لأعالجك من الجرح الذي سببته لك.

وضع الطبيب يده على كتف ريان مبتسمًا، ثم طلب منها أن تخرج لتترك طارق يرتاح.

أمسكت بيبا بيد ريان لتُساعدها على النهوض والسير خارج الغرفة، وجهًا لوجه مع رجال الشُرطة تقابلت ريان فور وقوفها أمام الباب، أشار أحد الممرضين نحو ريان وحادث الشرطي باللغة الإيطالية، لم تفهم ريان الكلام لتسأل بيبا والكلمات تخرج من فمها بصعوبة:

- ما الذي يحدث يا بيبا؟

- لا أعلم، لكن يبدو أن الشرطة يريدون الحديث معك، الممُرض قال إنكِ زوجته.

قاطع حديثهما الشُرطي ناطقًا بالعربية:

- أنتِ زوجة الشاب الذي ضُرب بالرصاص؟

أجابت مرتعشة:

- نـ، نـ، نعم أنا زوجته.

- إذًا فلتجلسي لو سمحتِ أريد أن أسألك بعض الأسئلة.

تحقيق سريع مع ريان أملًا في الحصول على معلومات لكن هي

نفسها لا تعرف شيئًا وحائرة، قالت:

- هربنا من رصاص ليبيا ليصيبنا رصاص إيطاليا، ظننا أننا سنجد الراحة بعد الهجرة، ولكن يبدو أن الحظ السيء هاجر معنا!

تكلم الشُرطي:

- حتى يتعافى طارق تمنع الزيارات والدخول عليه خصوصًا من زوجته، وإن علمتُ أن أحدًا دخل عليه فستتعرضون للمساءلة القانونية.

فور أن أنهى كلامه ترنحت ريان يمينًا ثم سقطت يسارًا؛ فالصدمات المتتالية جعلتها عاجزة عن الوقوف.

***

قضايا العالم المُظلم

قارب صغير أمامه يتحطم ليغوص تحت البحر ويحاول رُكابه التمسك بالحياة، يموت الصغار ويبكي الكبار، الأمواج تضرب الناجين لتقلص عددهم، فقط الماهر بالسباحة يقاوم، زوجته تتشبث بالحياة وتُناديه ليقفز في البحر وينقذها، تقدم خطوة ليهب للمساعدة، ولكن مرت أمام عينيه تلك اللقطة اللعينة فتراجع وحسم القرار بالاكتفاء بالمشاهدة، تصيح به مستنجدة بعلو صوتها والدموع تغطي وجهها.

نهض مرعوبًا والعرق يتساقط من جسده ليجد شرطيًا جالسًا إلى جانبه ليزيد الموقف حدة، ابتسم الشُرطي قائلًا:

- أخيرًا استيقظت يا طارق، أخبرني الطبيب أنك بخير، زوجتك بالخارج متلهفة لرؤيتك ولكنني منعتها و...

أخذ طارق نفسًا وقاطع الشرطي:

- خير ما فعلت.

- إنني لم أدعها تدخل؟

- نعم.

علم الشُرطي أن هناك خطبًا ما لكن هو لا يهمه إلا أن ينال من طارق الحقائق ويعرف ما حصل بالتحديد، يطرق الأسئلة واحدًا وراء الآخر ليسجل كُل معلومة مهمة، من مُصعب إلى ذلك المستودع، زنين هاتف الشُرطي يوقف الاستجواب ليجيب.

موقع الكتب جراية

مـكالمة أخـذت خمس دقائق، فـي الأولـى رُسمت علـى وجـه الشرطي ملامح القلق، لحقتها تجاعيد الغضب في الثانية ليزداد الانفعال عند الثالثة، قبل أن يغلق الخط تحرك من الكُرسي ثائرًا.

بعد أن أغلق الخط جلس شاردًا، طارق لم يحادثه بتاتًا، نطق الشرطي بالعربي الفصيح:

- اللعنة على الانترنت المُظلم، اللعنة.

ما إن سمع طارق بـ الانترنت المظلم حتى علم أنها إشارة ونداء له، عرض خدماته بابتسامة عريضة.

- مشكلة متعلقة بالإنترنت المظلم؟

- نعم.

- أسـتطيع أن أزيـل هـذا الحـزن الـذي يسيطر عليـك حضـرة الشُرطي، أنا خبير في هذه الأمور، وبإذن الله سأحل لك المشكلة.

قال بثقة:

- مشكلتي صعبة، أنا محقق وفاشل، تم تسليمي قضيتان ولم أستطع حل أي منهما وفي حال انتهاء الوقت دون الوصول لحل سيتم إعفائي من مهامي وإنزالي لوظائف أقل وأبسط !

- أنت تتكلم بسرعة حضرة المحقق، أولًا عرف بنفسك وألحقها بقضية الانترنت المُظلم

- أتتقمص دوري الآن؟

دولة الكتب مراجعة

- فلتعتبره تقمصًا، ألا تريد أن تُحل القضية؟ أخبرني إذًا.

- أيوب سايس مغربي الأصل ومواليد هذه الأراضي، القضية وباختصار أن هناك عارضة أزياء أمريكية اختطفت أثناء قدومها مدينة ميلانو في رحلة عمل، ما توصلنا إليه هو أن الشركة التي دعتها للعمل هي الخاطفة، ولسوء الحظ لا نجد أي أثر للشركة وكأنها...

أكمل طارق جملة أيوب:

- وكأنها شركة وهمية.

- كيف عرفت؟

- قُلت لك اعتبر هذه القضية حُلت، دعني يا سيدي الفاضل أقص عليك قصصًا قصيرة أولًا ثم أخبرك كيف تم اختطاف هذه العارضة.

حمل طارق نفسه ليسند ظهره على السرير ويروي ما لديه:

- سوزي بيريز عارضة أزياء ذاع صيتها فترة التسعينيات من جمهورية الدومينيكان، حصلت على عرض من شركة إيطالية، عرض مغرٍ لم تستطع رفضه، وفور قدومها إلى إيطاليا تم اختطافها والتلاعب بها لفترة طويلة من قبل الشركة التي تبين أنها تعمل لصالح المافيا الإيطالية، وُجدت سوزي عام ٢٠٠٧ مشردة بشوارع نيويورك ولا يعلم أحد كيف وصلت إلى هناك.

- وما دخل هذه القصة بالقضية التي لدي؟

دودة الكتب حراصية

- صبرك يا رجل، أخبرتك أن لدي قصتين وذكرت واحدة والآن سأبلغك بالثانية، وللعلم حدثت منذ أشهر معدودة، كلوي ايلينج عارضة أزياء بريطانية حصلت على جلسة تصوير في ميلانو مقابل مبلغ مغرٍ، غادرت كلوي بريطانيا وتوجهت مباشرة إلى استوديو التصوير، هناك كانت العصابة تنتظرها، قاموا بخطفها لمدة ستة أيام وعُرضت في الإنترنت المظلم للبيع بقيمة ٣٠٠ ألف يورو، لكن التحقيقات لديكم استطاعت كشف العصابة الخاطفة وإنقاذ كلوي.

- سمعتُ عن هذه القضية، ولكن لازلتُ لا أعلم ما الفائدة من ذكر هذه الأشياء يا صديقي.

- المحقق هو الشخص الذي يربط الأحداث ليكشف الغوامض، ركز معي، المافيا الإيطالية لديها العديد من المنصات على شبكة الإنترنت المظلم، وهذه المنصات توفر العديد من الخدمات كبيع المخدرات والأسلحة، بالإضافة طبعًا إلى بيع البشر، وتختلف الأسعار، عارضات الأزياء إغراء كبير لبعض قادة العصابات، لذلك يتم اختطافهن فسعرهن مرتفع، لعله برأسك سؤال كيف تتم عملية الاختطاف رغم أن العارضات يتعاون مع شركات موثوقة؟

- نعم لقد قرأت ما بذهني.

- ببساطة، المافيا تنفق مبلغًا لتأسيس شركات وهمية، تنشئ لها صفحات على مواقع التواصل الاجتماعي وتقوم بالإعلان لها، لنفترض مثلًا شركة تصوير يقومون بعمل حساب للشركة على منصة انستجرام ويضعون صور فتيات عليها، على أساس أنهن عارضات أزياء يأتين للشركة، تلك الفتيات هنا فتيات ليل دُفع

لهن مبلغ زهيد مقابل صورة أو اثنتين وتعرض صورهن على أنهن عارضات أزياء، ثم تقوم الشركة بإرسال رسالة إلى عارضة شهيرة من أي دولة في العالم، وتقدم عرضًا يجعل لعاب العارضة يسيل لتطير إلى إيطاليا حيث تقع في الفخ، العارضة سوزي اختطفت قبل وجود منصات التواصل الاجتماعي، لكن خُدعت بنفس الطريقة بواسطة إعلانات الجرائد والتلفاز.

سحب المُحقق رأسه إلى الخلف اندهاشًا من ذكاء طارق، وأخذ يضرب بيديه مصفقًا، تحدث:

- أذهلتني يا رجل، من أين لك بكُل هذه المعلومات؟

- أكملتُ حياتي الفارغة على الإنترنت المظلم وتتبعت معظم القضايا المُرعبة التي حدثت به.

- شخص نابغة مثلك يحزنني أنه خُدع بسهولة من قبل تلك العصابة.

- التسرع مشكلة، مشكلة أهلكتني.

أيوب سعيد جدًا بكشفه للمخطط الذي تعتمده عصابات الخطف، سيسهل الأمر عليه للوصول إلى دليل ينقذ العارضة من بين أيديهم، قبل أن يغادر تحدث:

- ما المقابل يا طارق؟

- مقابل ماذا؟

- هذه المعلومات القيمة التي أخبرتني بها، بالتأكيد أنت لم تعطها

لي على طبق من ذهب دون مردود.

- بما أنك ذكرت هذه النقطة، أريد منك خدمة بسيطة حضرة الشرطي أو في الواقع خدمتين.

- ما هما؟

- الأولى لا أريد أن أقابل زوجتي، فأريدك أن تمنع الزيارات عني، الثانية أريدك أن تساعدني للحصول على حياة كريمة بعيدًا عن منظمات الرعاية.

- طلبات سهلة، ولكن يا رجل زوجتك منهارة بالخارج دعها تطمئن عليك.

- هي ستطمئن، أما أنا فسيزداد ألمي، أرجوك امنعها من الدخول وسأساعدك في القضية الثانية.

ضرب أيوب بيديه على ركبتيه ووقف باسمًا:

- حسنًا لك هذا، الآن سأذهب، وحين يتحسن وضعك سآتي لأخذك معي إلى مكان أفضل.

خرج أيوب ليبلغ الطبيب أن الدخول على طارق ممنوع وغادر، تترجى ريان بكل قواها المحقق ليجعلها تدخل، تشبثت به وتوسلت دون أي فائدة، متسطحة على الأرض والدموع تنهمر، صديقتها تحاول إيقافها لكن ريان اكتفت بالرفض، ريان تعلم أن طارق لا يريد أن يقابلها، كان على الطبيب التدخل في النهاية وإعطاء وعد لـ ريان أنه في اليوم المقبل سيدخلها سرًا لزوجها، أتى الموعد لتتقدم ريان بخطوات مرتعشة إلى الغرفة القابع بها

طارق، وضعت يدها على المقبض لكن الضعف منعها من فتحه، مد الطبيب يده ليمسك المقبض ويفتح الباب لها، ابتسم الطبيب وأشار بيده نحو الغرفة لتدخل ريان.

بهدوء تتحرك، أشعلت النور ليستيقظ طارق، صوب ناظريه نحوها والاشمئزاز واضح عليه، تقدمت فقال:

- زيارتك لن تخفف الألم، إن كُنت خائفة على صحتي ابتعدي.

- أيمكنني الجلوس والدفاع عن نفسي؟

- تريدين التبرير؟ حقًا؟ أفضل ما يمكنك فعله أن تعترفي أن ما رأيته حقيقة، لا تبرري فهكذا ستزيدين الطين بلة.

- نعم ما حدث حقيقة، لكن دعني أدافع عن نفسي، أرجوك.

- اجلسي.

يسري داخل جسدها الرُعب، قطرات العرق تتساقط؛ فهي تعلم أنها دخلت عملية صعبة، عملية شبيهة بتفكيك قُنبلة موقوتة، أي كلمة خاطئة سينتج عنها نهاية علاقة صادقة.

فتحت فمها للحديث لكن طارق سبقها:

- أتعرفين يا ريان ما سببُ هذا الرصاص بجسدي؟ بحثتُ عن عمل لأوفر به قوت يومنا، وكان نصيبي أن أقع في قبضة عصابة لعينة، في نفس الوقت الذي كُنت تلهين فيه مع عشيقك.

- ليس عشيقي يا طارق، لا تتهمني أرجوك هو زميلي في العمل.

- بضع أيام فقط على تعرفك عليه وأصبحتِ تمزحين معه وكأنه زوجك فما بالك لو استمررتِ بالعمل لمدة أطول.

- طارق ما فعلته خطأ وأنا مدركة جدًا لخطئي.

- لا حاجة لأن تقولي لي أنكِ مخطئة فأنا أعرف هذا، حين يُولد الشك تموت العلاقة.

- ماذا تقصد؟

- ريان عيشي حياتك بعيدًا عني.

- تتخلى عني بهذه السهولة؟ تتركني وحيدة في الغربة؟

- وما ذنبي أنا؟ هل علي أن أحتمل أفعالك الغبية؟ ريان أنا رجل وإن احتجتني سأكون إلى جانبك متى أردتِ، وأي تطور يحدث في حياتي سيكون لكِ منه نصيب، ولكن أن تستمر علاقتنا فهذا أمر مستحيل.

انهمرت الدموع وحدها ووقفت ريان راكضة إلى خارج الغرفة بينما طارق يضرب بيده على السرير متعصبًا:

- أنتِ السبب يا ريان أنتِ أنتِ.

ومرت الأيام ليصبح طارق قادرًا على الوقوف ويكون أول من يلقاه هو المُحقق أيوب، يجلسان بشُقة أيوب ليتحدث:

- أولًا الحمد لله على سلامتك يا طارق، وثانيًا أشكرك على مساعدتك لي المرة السابقة، المعلومات التي أمددتني بها جعلت رئيسي يُبهر بها، أخيرًا سأساعدك بخصوص إقامتك هُنا، بحُكم

أنني أتبع الشُرطة الإيطالية لي صلاحيات كثيرة، لذلك يمكن أن أؤمن لك عملًا، بفضل شهادتك في البرمجة وخبرتك في الانترنت المظلم يُمكنك العمل معنا في قسم الشُرطة الإلكترونية وستكون مساعدًا لي وتتقاضى راتبًا جيدًا، لكن بالنسبة المسكن ستبقى في نفس المكان، مع الوقت ومع القضايا التي نحلها ستزيد مكاسبك، بالإضافة إلى أن حصولك على الإقامة سيصبح أمرًا سهلًا.

- هذا مُفرح، لكن صدقًا لا أريد أن أعود إلى ذلك المنزل.

- أنت لا تريد رؤية زوجتك؟

- بالضبط.

- احتمل هذه الأيام فقط حتى نجد حلًا لهذه المشكلة، سأنقلك الليلة إلى المنزل لكن قبل ذلك لدي القضية الثانية لتساعدني في حلها، إن حُلت فسأكون تخلصت من معظم مشاكلي.

- حضَّر لي بعض القهوة وأسرد لي معضلتك وسأحلها بإذن الله.

جلس الاثنان على الطاولة يشربان القهوة بينما تدور من فوقهما المروحة مصدرة صوتها المُزعج، بدأ أيوب سرده:

- كُلفت لمساعدة محامي دفاع في قضية قتل، المطلوب مني أن أكشف ثغرة في شهادة الشاهد الوحيد بالقضية، والذي كان لديه العديد من الثغرات في شهادته وإن وجدت ثغرة أخيرة فستبطل شهادته.

- وما هي القضية؟

دودة الكتب دراسية

- حسب شهادة الشاهد قال إنه رأى المتهم يضرب الضحية بتذكار المسيح المُخلص حتى الموت، يذكر أن الضحية كان عائدًا من البرازيل في نفس اليوم الذي قُتل فيه، الثغرة في شهادة الشاهد أنه قال إن توقيت الجريمة الرابعة عصرًا، وأكد على ذلك، بينما الجريمة وقعت في الواحدة ظهرًا، وحين حدد له محامي الدفاع الوقت تحجج بأنه سمع ذلك في الراديو رغم أنه تأكدنا بأن لا يوجد أي راديو في المنزل.

- سؤال، ما هو المسيح المخلص؟

- تمثال ضخم موجود بالبرازيل، أي سائح يأتي للبرازيل لابد أن يشتري تذكارًا مشابهًا للتمثال.

- حسنًا إذًا تريدني أن أكشف ثغرة في الشهادة؟

- بالضبط، شهادة الشاهد طويلة ووجد في معظمها ثغرات، لكن هذه هي الصيغة الأخيرة للشهادة فإن وجدنا بها ثغرة ستسقط شهادته، بل وسيُصبح متهمًا.

يفكر طارق بجدية، يتذكر الأفكار العديدة في ألعاب الألغاز والتحديات التي قضى وقته عليها على حاسوبه، يُفكر في القضايا العجيبة التي قابلته سابقًا في نشرات الأخبار والوثائقيات، نصف ساعة مرت، يعصر رأسه ليجد حلًا حتى فعلًا عثر عليه

- سؤال يا أيوب، هل التذكار يحتوي على ساعة؟

- نعم لكنها تعطلت أثناء استعمال التذكار كأداة قتل.

- أتعلم أن في مُعظم دول العالم حين تشتري تذكارًا يحتوي على ساعة فإنه يكون معدلًا على توقيت البلد الذي اشتريت منه.

- وضح أكثر.

- ابحث عن فارق التوقيت بين البرازيل وإيطاليا.

يضغط أزرار هاتفه بسرعة ليقوم بعملية البحث ويكتشف أن..

- الفارق بينهما ثلاث ساعات.

- أظن أن الأمر أصبح واضحًا، إذا كانت الساعة في البرازيل الواحدة ظهرًا فـ...

أكمل أيوب جملة طارق:

- فالتوقيت في إيطاليا الرابعة عصرًا.

- بينقو، أفهمت الآن، القاتل لم يكن المُتهم بل الشاهد، بما أن ساعة التذكار مُعطلة، فهذا يعني أن الوحيد الذي كان قادرًا على رؤيتها هو من حمل التذكار أثناء عملية القتل، خُذ التذكار وقم بإعطائه لأول خبير صيانة ليصلحه ثم قدم ما قُلته لك كرد على الشاهد وهكذا تكون أغلقت القضية.

وقف أيوب دون أن يقول كلمة ليتجه نحو طارق ويمسك بيديه رأس طارق ويهزه في انبهار:

- أنت يا رجل نابغة كيف فاتتني هذه النُقطة، حفظك الله يا صديقي حفظك الله.

قاطع كلام الاثنين مُكالمة لهاتف المحقق ليرد ويقول بالإيطالية التي لا يفهم منها طارق حرفًا، تختفي البسمة تدريجيًا من على وجه أيوب ليأخذ القلق مكانها، أغلق الخط ونظر إلى طارق.

سأل طارق:

- ماذا هُناك؟

رد والأحرف تخونه:

- لا، لا، لا أعرف ماذا أقول لك يا طارق.

وقف طارق متفاعلًا:

- إذًا المكالمة تخصني؟ أخبرني ماذا هُناك.

- تم اختطاف زوجتك.

وكأن النور أطفئ، أصبح كُل شيء مُظلمًا، أمام طارق الذي أخذ يضرب يمينًا ويسارًا، تعصب شديد، ثار على نفسه فهو سبب كُل هذا، اضطر أيوب أن يلكم طارق ليجعله يركز وصرخ :

- معاقبتك لنفسك لن تنقذ زوجتك، نحتاج لإيجاد خطة فعلية لإنقاذها.

تحرك الاثنان مباشرة إلى المنزل ليجدوا الشرطة هُناك يحققون، فور قدوم طارق لاقته المحققة فيرونا المسؤولة عن مشاكل المهاجرين العرب في إيطاليا، خاطبت أيوب أولًا

- محقق أيوب من كلفك بملف السيد طارق كان من المفترض أن

أتولى أنا ملفه.

- لقد سبقتك، الأمر لا يحتاج لأن تغضبي.

- لا تدخل في عمل لا علاقة لك به مرة أخرى.

حركت عينيها نحو طارق:

- سيد طارق لا تقلق أؤكد لك أن زوجتك ستعود، وهذا وعد مني، أريدك أن تتعاون معي فقط، القضية سأتكفل بها شخصيًا وسأحتاجك إلى جانبي لربط الأحداث وكشف الحقائق، أريدك الآن أن تدخل إلى غرفتك وتفكر بكُل ما لديك تكتبه في ورقة وفي صباح الغد سنبدأ العمل ويجب أن ننهي هذه القضية في أيام معدودة، دورياتنا انطلقت في رحلة بحثها وعلى أمل أن نجد زوجتك في أسرع وقت.

غادرت المحققة وكُل عناصر الشرطة ليتكلم أيوب:

- لا تصدقها وإن حصلت على معلومة قيمة لا تخبرها بها، هُنا يا طارق لا أريدك أن تثق بأحد، أي شيء يحصل أخبرني به وسأرشدك إلى الحل المُناسب.

رحل أيوب ليجلس طارق بغرفته والغضب يملؤه، التفكير ولا شيء غير التفكير، يقف مفكرًا في الخروج والبحث، يجلس ليبحث عن حل عقلاني، يضرب رأسه ليهز مخه لعله يجد شيئ مفيدًا، صُداع شديد، يشد شعره ويضغط على أصابعه، رباه الموقف يدمره ببطء فهل سيصبر للصباح؟

طرقات على باب الغُرفة، وثب مباشرة نحو المقبض ليفتح لعل

الطارق ريان، خاب ظنه بعد أن رأى السوري عبدالرحمن واقفًا، قال في هدوء وهو مطأطئ رأسه:

- ماذا تريد؟

رد عبدالرحمن:

- آسف حقًا على ما حصل وأتمنى أن تكون زوجتك بخير، جئتك لأخبرك أنه لدي معلومة قد تكون ذات فائدة لك.

رفع طارق رأسه وتكلم:

- ما هي؟

- في بداية قدومنا إلى هذا المكان، تكلم معي جوزيف المسؤول عنا، وطلب مني أن أراقب تحركاتك في مُقابل أن يزيد مبلغ الدعم لي.

- ولماذا يريدك أن تراقبني؟

- لأنك ليبي فهناك شكوك أنه لربما لديك علاقة مع عصابات تهريب البشر خصوصًا، كما تعلم أن قاربك غرق، ولم ينج إلا أنت وزوجتك وشابان جزائريان.

- حسنًا وأين المعلومة؟

- أنا أعرف بأمر المستودع السري.

ملامح الذهول ارتسمت على وجه طارق:

- وكيف عرفت؟

- ذلك اليوم كُنت أتتبعك بدراجتي الهوائية، ورأيت عددًا كبيرًا من الناس يحملون صناديق، عرفتُ أنه نشاط غير طبيعي.

- وهل أخبرت جوزيف؟

- سأكون معك صريحًا، كُنت أنقل لجوزيف أخبارك لكن أتغاضى عن البعض؛ فلطفك مع جدتي يمنعني من ذلك، لهذا قصة المستودع لم أبلغه بها.

- إذًا أنت تعرف مكان المستودع.

- نعم حفظته على مُحدد المواقع بهاتفي.

سعد طارق وأحس بأن الأمل قد عاد، حمل هاتف زوجته المرمي على السرير ليتصل بأيوب، لكن وقتها رمق بعينيه عبدالرحمن وقال:

- هل لي بطلب أخير يا صديقي؟

***

غرق الخُطة

انتظر طارق حتى بزغت الشمس ليحمل هاتفه ويتصل بأيوب مبلغًا إياه بالتطورات، كرر أيوب تعليماته لطارق ألا يخبر الشرطة حتى الليل، وحين سأل طارق عن السبب قال أيوب:

- قُلت لك إن الشُرطة تتعاون مع المافيا، وأخشى أنه إن أبلغت الشُرطة ستكون قد ساعدت في هرب العصابة لذلك اصبر للمغرب سأحاول البحث عن حل وإن لم أجد يمكنك الاتصال بهم.

الصبر هو الموت البطيء الذي رافق طارق العاجز عن القيام بأي تحرك، والخطر يحيط بزوجته، لم يأكل، لم يشرب، لم يتحرك، وتجنب التواصل مع المُحققة فيرونا أخبرها أنه سيلتقي بها بعد غروب الشمس، وغابت الشمس ويداه ترتعشان متصلًا بأيوب وبلهجة غاضبة.

- أنتظر مكالمتك ولم تتصل يا أيوب.

يتلعثم في الكلام:

- طارق صديقي، آسف حقًا آسف، لم أجد حلًا ولكن...

أغلق طارق الخط دون أن يسمح لأيوب أن يكمل كلامه ليتصل بالمُحققة ويطلب منها الحضور فورًا، ولم تمر عشر دقائق حتى أتت ليعلمها بمقر العصابة فترسل رتلًا من الشُرطة ليداهموا المكان وتطلب من طارق أن يرافقهم ليُشرف على تحرير زوجته بنفسه، وصلوا إلى الموقع، تلك الغابة وذلك المستودع، تحرك رجال الشُرطة من كل الزوايا لمحاصرة المكان والاقتحام، هُنا

كانت المفاجأة، المستودع خاوٍ على عروشه !!

لا أحد، لا أثر للبشر ولا حتى للمخُدرات، لكمت المُحققة الجدار قائلة:

- أنت متأكد من المكان يا طارق؟!

- أؤكد لك، هذا المكان هو الذي أتيتُ له سابقًا وهُناك غُرفة بالأعلى.

- تبًا إذًا يبدو أنهم انتقلوا لمكان جديد.

أمرت رجالها بأن يفتشوا الغرفة بالأعلى، ولكن حالها كحال المستودع خالية دون وجود أي أثر يوصلهم للعصابة.

عاد طارق جارًا أذيال الخيبة، دخل غرفته ليأخذ نفسًا ويضغط أزرار الهاتف متصلًا بأيوب.

- أيوب المُستودع خالٍ، يبدو أن العصابة أخلت المكان.

- ماذا تقول؟

- كما سمعت.

- لا تقلق يا طارق سنجدُ حلًا، أعدك يا صديقي.

- هُناك شخص اتصل بي مُنذ دقائق وأبلغني أن ألتقي به غدًا عصرًا، أبلغني أنه لديه معلومات عن مكان زوجتي.

ارتفع صوت أيوب بعد ما قاله طارق:

- ماذا تقول؟ من هذا الشخص؟

- لا أعرفه ولا أعرف حتى من أين تحصل على رقم هاتف زوجتي لكن لن أخسر شيئًا غدًا سأقابله أفضل من الجلوس والانتظار، ما رأيك أن ترافقني؟

- أتعلم فكرة جيدة، نعم سأرافقك لكن لن أذهب، ومعنا المُحققة فأنا أكرهها.

- أعلم أعلم، لا تقلق أنا وأنت فقط سنذهب.

جلس طارق والساعة أمامه يراقب عقاربها تتحرك، ينتظر عصر اليوم المُقبل، أكل قليل ونوم بسيط، فعقله روحه وكُل كيانه مشغول بريان.

أتى العصر وأيوب أمام المنزل واقف، توجه الاثنان إلى العنوان المُحدد، وكانت ساحة لعب كرة قدم في أحد أحياء المنطقة، سأل أيوب:

- أهذا المكان؟

- نعم هذا هو.

- وأين ذلك الشخص؟

- دعنا نمهله بعض الوقت، وإن تأخر سأتصل به.

مر الوقت لينفعل أيوب:

- لا أعلم لماذا أشم رائحة فاسدة؟

قاطع كلامه رنين هاتف طارق ليحمله وينصت إلى المُكالمة، تلك المكالمة التي جعلت ملامح وجهه تُشرق وتبرز ابتسامته، أغلق الخط وقال:

- نعم هُناك رائحة فاسدة، رائحتك يا خبيث.

صُعق أيوب ليطلق كلماته:

- ماذا تقول؟

- أتعرف وقتًا أخبرتك بمكان العصابة كُنت قد تركتُ صديقًا لي يراقب المُستودع، وبعد مكالمتك بنصف ساعة بدأت العصابة في نقل كُل شيء لتغيير مكانها، عرفتُ أنك أنت من أبلغهم لتغيير مكانهم، صديقي ذاك ساعدني كثيرًا وتتبعهم ليعرف مكانهم الجديد، والمكالمة التي أتتني في هذا الوقت كانت من المحققة، وقد بشرتني بأنه تم القبض على الجميع وكذلك زوجتي تحررت.

ضحك أيوب كثيرًا:

- ولماذا أخذتني إلى هذا المكان إذًا؟

- للانتقام.

- سؤال؟ من وسوس لك بهذه الفكرة؟

- الشيطان.

- يا فتى أنا الشيطان وقد أوقعتك في فخي، ربما زوجتك تحررت لكن أنت الآن رهينتي، هذا المكان مُحوط برجالي.

زادت ابتسامة طارق وتحدث:

- الآن دوري لأضحك.

بعد أن ضحك أكمل:

- سألتني لماذا أخذتك لهذا المكان؟ في الواقع ليس للانتقام، بل لأشتتك؛ فأنا علمتُ أنك ستتخوف مني وتحضر جزءًا من رجال العصابة معك، وهكذا أسهل على الشُرطة عملية القبض عليكم، كُل رجالك الموجودين بهذا المكان الآن هُم تحت قبضة رجال الشُرطة، انظر من حولك يا غبي.

وفعلًا حرك أيوب عينيه ليلمح رجال الشُرطة في كُل زوايا المكان، عجز وكان الخوف كان واضحًا وجليًا عليه، طارق تقدم بخطوة غريبة ليخرج مسدسًا ويوجهه صوب أيوب مخاطبًا:

- لم يتبقَ لك إلا أن تخرج مسدسك لذلك ها أنا سبقتك بهذه الخطوة لأغلق آخر نافذة أمل لك.

صفق أيوب وبحرارة ونطق:

- لم أقابل من هو أذكى منك يا طارق.

- ولن تُقابل لآنك ستكمل حياتك في زنزانة انفرادية، حالك كحال مُصعب، حالك كحال رئيس عصابتكم، وكُل شخص أراد سوءًا، يا لعين كدت أن تدمر حياتي.

- لم أرد أن أدمرها، كُلفت فقط بقتلك لكن حين قابلتك ورأيت ذكاءك، أبلغت رئيسي بذلك، وأننا نستفيد من خبرتك في الشبكة

العنكبوتية، كُنت أريد أن أجعلك تعمل معي، عصابتنا تحتاج لعقل ذكي كعقلك، اختطفنا زوجتك لإخضاعك، لم نتوقع أن هذا الأمر سيفتح حُفرة النهاية لنا.

صافرة سيارات الشُرطة تقتحم المكان، انقضت العناصر على أيوب، نزلت المُحققة فيرونا من سيارتها متوجهة نحو طارق متحدثة معه:

- سيد طارق بفضلك استطعنا إسقاط مجموعة تنتمي لعصابة (كوزا نوسترا) دون أن نخسر جنديًا واحدًا، خُطتك كانت في منتهى الذكاء والكلمات لن توفيك حقًا.

شرد عقل طارق عن كُل ما حوله وركز في تلك التي ترجلت من سيارة الشُرطة، ابتسمت المُحققة فيرونا ناطقة:

- سأكمل حديثي لاحقًا، زوجتك تنتظرك.

أمام بعضهما يقفان بعد أيام من الفراق، تقترب ريان خطوة فيبادر طارق بالثانية، حرك طارق رأسه لينظر حوله في تعجب غير مُصدق لرؤيته زوجته التي كان فقدانها أمرًا واردًا، مد يديه نحوها وهي صامتة ليسحبها نحوه، قال والدموع تتساقط:

- قاومتُ البكاء معاهدًا نفسي أن أحول دموعي إلى فرح يوم رؤياك! خشيت أن أخسرك يا عزيزتي.

- طارق يا رقيق القلب بفضلك أنا حُررت.

- وبسببي أسرتي.

- هذه ضريبة هجرتنا، أنت لست السبب؛ فأنت بحثت عن العمل لـتريحني، أتعلم حين اختطفت خشيتُ أن يقتلونني قبل أن تسامحني على ما فعلت.

وضع يديه على كتفيها وأبعدها منه قليلًا وأخذ نفسًا ليقول:

- من كُل قلبي أسامحك.

يحتضنان بعضًا لدقيقة ثم يبتعدان لينظرا إلى عيني بعضهما ويكررا نفس المشهد عدة مرات حتى سأل طارق:

- أخبريني، هل آذوك؟

طأطأت ريان رأسها بالأرض ولزمت الصمت، حرك طارق يده رافعًا رأسها وأعاد سؤاله:

- هل آذوك؟

أجابت والبرود يعتلى وجهها:

- أجبروني على الفاحشة.

أزال طارق يده عن ريان وتباعد عنها، يفرك رأسه ويدور بالمكان، تسأل ريان:

- ماذا بك؟

لا يجيب، فتعيد السؤال مرة واثنتين وثلاثة، يدور كالمجنون، اتجهت نحوه ريان لتمسكه من قميصه بصوت مرتفع:

- ماذا؟ أتريد أن تتركني الآن؟

أجابها بنبرة أكثر ارتفاعًا:

- يا غبية أنا لن أتركك، أنا أحبك والذنب ليس ذنبك لكن غيرتي قاتلة وقلبي سيؤلمني في كُل مرة تذكرت أنه نام، نام، اللعنة، نام شخص معك، ساعديني يا ريان يجب أن أتخلص من التفكير بهذا الأمر.

ابتسمت ريان وحادثته بهدوء:

- لا داعي لأن تُفكر في الأمر لأنه لم يحدث، أردتُ أن أختبرك فقط.

برزت عيناه وارتسمت البسمة:

- حقًا؟

- أقسم لك يا عزيزي، ما حدث معي بالسجن ببساطة وُضعت في غرفة مظلمة خالية، أقضي على أرضها حاجتي وأكل بها ما يُرمى لي من طعام، في الثلاثة أيام التي بقيتُ بها هُنا كُل يوم يدخل عليَّ رجل سمين أصلع وبلحية كثيفة، يبتسم بمُكر فاتحًا أذرعه لي لأذهب معه، وكلما رفضتُ يقول بعض الكلمات الإيطالية ويخرج، الحارس يقول بالإنجليزية أخبرني أن هذا هو الرئيس وهو يستخدم معي سياسة الإخضاع بحيث أراد أن يذلني بتلك الغرفة المخيفة يومًا بعد يوم حتى أيأس وأذهب إليه مسلمة نفسي ومنفذة لكل رغباته.

- أحمد الله على سلامتك يا عزيزتي، أنرتِ حياتي.

***

رحلة «طارق» لم تنتهي ليطلب ترحيله وزوجته إلى «ليبيا» وفعلًا بالتعاون مع السفارة الليبية لبت الحكومة الإيطالية طلب «طارق» وعاد رفقة زوجته إلى ليبيا.

لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، سمعة «طارق» و «ريان» أصبحت في الحظيظ (هاجر وترك والده المريض) (سرق أموال زوجة أبيه) (خدع فتاة يتيمة من أجل أموالها) (ريان قامت بسحر طارق) الشائعات هطلت كالمطر على رأس «طارق» و«ريان» ليقررا القيام بالتجربة مجددًا.

فعلًا هاجر الاثنان للمرة الثانية ووصلا سالمين دون أي مشاكل ولم تقابلهما أي مغامرة مرعبة، سخر الله لهما الطريق، بقيا في إيطاليا قليلًا ثم وجد «طارق» أن تقديم طلب الهجرة في ألمانيا أفضل خصوصًا أن العمل كمبرمج في ألمانيا سهل جدًا.

ومرت الأعوام لتستقر حياة هذا الثنائي في ألمانيا بعد مغامرة مليئة بالأحداث المخيفة والغير قابلة للتصديق، ها قد رزقا بابنتهما الجميلة «ياسمين» بعد أن ارتاحا بحياتهما، الآن هما يتحدثان اللغة الألمانية الصعبة بطلاقة، من كان يتوقع أن رحلة كهذه سيكون ختامها مسك؟ القُلوب النقية لها الخواتيم النقية وهكذا كان هذا الثنائي.

***

- اليوم يا سادتي المُشاهدين سنقدم لكم عرض «الموت بألف جرح»

فور أن أنهى ذلك السفاح الذي يرتدي زي ميكي ماوس جملته، تقدم نحو شخص عار كليًا مقيدة على عمود، حاملًا في يده حُقنة وكلمه

- هذه الحُقنة ستجعلك تتحمل الألم الذي سأسببه لك الآن وموتك هكذا سيأخذ منا بعض الوقت، هذه الطريقة أخذتها من كتاب لطُرق التعذيب الصينية

أغلقت «ريان» شاشة الحاسوب ونفخت ساخطة

- عزيزي نحنُ الآن لدينا «ياسمين» الجميلة وأريد لها أبًا عاقلًا وليس مخبولًا يستمتع بمشاهدة العروض الدموية لذلك كما اتفقنا لا مزيد من مواقع الانترنت المظلمة

حمل «طارق» ابنته النائمة ليقبلها ويرفع رأسه نحو «ريان» قائلًا

- معك حق، أعتقدُ أن رحلتي مع الانترنت المُظلم انتهت.

تمَّتْ

***